رواية

ثرثرة لا يسمعها العالم

للكاتبة

عبير نعيم احمد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

رنا عماد

الطبعة: الأولى

رواية : ثرثرة لا يسمعها العالم

تأليف : عبير نعيم أحمد

التصميم والإخراج: حسن عبد الحليم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ١٣٢٢٣ / ٢٠٢٣

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 993 - 601 - 7

العنوان : برج الياسمين الدور السادس ٢٧٦ ش فيصل .. الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : Yastoron@gmail⋆com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى روح أمى الحائرة التى تتألم أنى مازلت حية !

دعينى أحدث جلبة أو مزيداً من الثرثرة فى هذا العالم . .

كفاك أنك مت بداء الصمت !

مقدمة

حينما يتحرر المبدع من قيود الزمان والمكان، وأيضا من قيود العقل الواعي ويسبح ضد تيار الوعي بداخله في لجة بحر اللاشعور، وكذلك يتمكن من إنجاز صخب وفوضى خلاقة محسوبة تتعلق بتقييمات دقيقة عن حسابات التداخل في الأزمنة والرموز، وطبقات الوعي، فنحن في هذه الحالة في حضرة كاتبة قررت بمحض إرادتها أن تطالع وتعكس زمانها الواقعي مثلما تراه في مرآة ذاتها من الداخل وتصف بدقة فورانه وتصارعات شخوصه الحقيقية والمتوهمة مثلما تدور داخلها في منظومة مفتعلة ومؤثرة من الهمس المتواصل والثرثرة الموجعة التي تعيشها الإنسانية في هذا الزمان، بغض النظر عن ذلك الواقع الحقيقي الفوتوجرافي للإنسان والطبيعة والذي سبق وأن ولجه أو عكسه الآف الآلاف من المبدعين على مر العصور.. وإذا كان الكولومبي جبرائيل جارسيا ماركيزالحائز على جائزة نوبل بفضل روايته المدهشة مائة عام من العزلة نجح في جذب انتباه العالم إلى واقعيته السحرية التي اشعلت حماس مبدعي العالم إلى هذا الدرب، وإذا كان الفنانون

التشكيليون استحقوا الريادة في شجاعة الغوص داخل الإنسان وسبر غوره ووصف كل ما هو مخفي وباطني داخله، ولحقهم فلاسفة التحليل النفسي الرواد مثل وليم جيمس الذي يرجع له الفضل في نحت هذا المصطلح الذي اعتمد المنولوج الداخلي طريقة لتصوير المشاعر والأفكار المتدفقة التي تمر عبر العقل في كتابه الشهير مبادئ علم النفس الذي صدر عام ١٨٩٠. إن تيار الوعي في الأدب تتعمق جذوره إلى ما وراء ذلك نذكر على سبيل المثال، لا الحصر رواية «جوع » لكينت هامسون عام١٨٩٠،ورواية السيدة دالواي لفيرجينيا ووالف ١٩٢٥، و«بينما أرقد محتضرة» لوليام فوكنر، و«الإنسان الصرصار» لديستوفيسكي و« الغريب» لألبير كامو ،..الخ .ومن إبداعات المصريين فصراحة هذا الصدد نذكر على سبيل المثال« اللص والكلاب» لنجيب محفوظ ، ورواية «رامة والتنين» لإدوارد الخراط . إن انعكاسات الواقع الثقافية ونتائجها الملموسة على العقل البشري ومبلغ تطوره في القرن الحالي بفضل الطفرة التكنولوجيا وتوابعها القيمية فتحت لدى المبدعين الأصلاء أبواب الشهوة والجاذبية على اتساعها للمغامرة بسبر أغوار النفس والانفتاح على كل ما كان محرما الاقتراب منه أو

مجرد التماس به ،والكاتبة عبير نعيم أحمد من ذلك الطراز فى روايتها ثرثرة لا يسمعها العالم الذي يرقب الواقع المعاش بدقة متناهية بنفس القدر الذي ترقب به داخلها الذي يمور بالأحلام والأحداث والصور والأفكار الإبداعية الأصيلة . إن شخصية رسلان بطل الرواية دارت في محاور متعددة للنص المدهش من بؤس واقع ظالم اختلت فيه معايير العدالة والقيم ورغبة في التغيير والانتقام والتطهر.

وبين ذلك وذاك برعت الكاتبة في استخدام أدواتها سواء لغة السرد الذي غلب عليه سرعة التواتر لدرجة اللهاث والتشويق وفي ذلك إشارة رمزية مهمة عن أن العالم حولنا يركض لدرجة اللهاث، وكذلك الحشود الرمزية كما في صدام معركة الشطرنج، والانشقاقات الجسدية التي تشي بأن شخوصا قابلة للانشطار لدرجة التفكك والاستقرار في مستشفى الطب النفسي للهروب من واقعهم المرير أحيانا، ثم ناهيك عن روعة مغامرة الكاتبة في البوح بالمشاعر الذكورية الصريحة من دون مواربة وقضايا معاصرة تتعلق بالسطوة الذكورية على الإناث وقهرهن من أجل إشباع الرغبات المنفلتة للرجال.

إن رواية ثرثرة لا يسمعها العالم التي نحن بصددها إفراز طبيعي لواقع نعيشه عبرت عنه الكاتبة عبير نعيم أحمد بإبداع وصدق وجرأة وتمرس فى السرد منقطع النظير كما أنها إفراز طبيعي لتحديات معاصرة تواجه كتاب الرواية في هذه الآونة خاصة المبدعين الحقيقيين منهم الراغبين في تطوير بنية الرواية السردية والفكرية والغوص بمنتهى العمق في بحار ذلك الواقع المعقد الذي لايمكن أن يشي عن نفسه بسهولة في هذا الوقت وهذه الظروف الإنسانية المرتبكة .

د كتور أحمد الباسوسى كاتب ورئيس مجلس إدارة نادى القصة المصرى ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بمستشفى القصر العينى.

د أحمد الباسوسى

رئيس مجلس إدارة نادى القصة

رئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية

مستشفى القصر العينى بمصر

كانت قاعة المحكمة هذا اليوم تعج بالحاضرين فهذا اليوم هو اليوم المحدد للحكم النهائى في قضيتي..وقفت خلف القضبان أنظر إلى وجه زوجتي وطفلتي الصغيرة أمامي في القاعة وهما ينظران إلى وجه القاضي المتأهب بنطق الحكم، وبعد ساعة من المرافعة؛ أخيرًا انطلق الحكم من فم القاضي.

لقد تم الحكم على السيد رسلان. بعقوبة عشر سنوات في حادثة السرقة التي ارتكبها منذ شهرين، صرخت زوجتي هزت القاعة، وتعالى بكاء طفلتي الصغيرة لم أجد ملاذًا غير الإمساك بقضبان كانت تحوطني من كل اتجاه، أهزها بقوة وأنا منهار، أصرخ بكل قوتي أين العدل؟ أين العدل يا سيادة القاضي؟.

ولكن القاضي لملم أوراقه ونزل سريعًا عن المنصة وانصرف في هدوء قاتل حتى لم يكلف نفسه أن يرمق طفلتي البريئة ولا زوجتي، اقتربت زوجتي من القضبان التي أحتبس وراءها ، تواسيني بدموعها الحارة، طلبت منها أن تقدم طلبا للطعن في الحكم ولكنها قالت لي من أين؟

فنحن لا نملك قوت الغد ..فمن أين تأتي تكلفة المحامي، ورفع الدعوى؟.

إجابتها جعلتني كالحريق الخامد ولكن في بطنه جذوة من نار.

أمسكت يد طفلتها ورفعتها أعلى القضبان كي أقبلها لتعود إلى مدينتها، طلبت منها أن لا تصطحب طفلتي معها كل زيارة للسجن، وعليها أن ترعاها جيدًا ثم غادر الاثنان القاعة.

فجأة وجدت قبضة يد تقبض على ذراعي بقوة لتقودني إلى حجرة العقوبة الدائمة، ثم ترمينى بقوة على الأرض، ويغلق الباب بالسلاسل، الحجرة شبه مظلمة، جلست على الأرض متكئا بظهري إلى الحائط.

أغمضت عيني، من شدة القهر حتى لا أرى حتى الظلام الذي يحوطني هنا، كنت أتحرك بجسدي في كل أرض الحجرة الضيقة، تحسست أقدامي الحافية شيئًا يشبه عضو بشري، أفقت بسرعة لأرى ما هذا الشيء الذي لامس أصابعي نظرت بتركيز وجدته رجلاً نائما على الأرض !

نظرت إلى وجهه وجدته غارقًا في النوم.

وجود هذا الرجل بدأ يقلل من رهبتي من هذا المكان المظلم، ترددت فى إيقاظه حتى لا يؤذيني فجلست في ركن

بعيد عنه، ساعات وبدأ الرجل يفتح عينيه محملقا إليّ:من أنت؟

أجبته: أنا نزيل معك هنا في نفس الحجرة أقضي عقوبة عشر سنوات سجن.

فضحك ضحكة هزت جدران الحجرة الضيقة، اندهشت!

ما الذي يضحكه؟ حاولت الابتعاد عنه قدرالإمكان لآخر الحجرة، لكنه اقترب مني وسألني نفس السؤال من أنت؟

ترددت في الإجابة هذه المرة والتزمت النظر إليه فقط، وجدته يصفعني على وجهي صفعة شديدة جعلتني أذهب إلى باب الحجرة أستنجد بالحراس من هذا المجنون.

لكن الحجرة كانت فى مكان بعيد عن مسمع الحراس ، لم أجد طريقة أنقذ بها نفسي منه سوى الإجابة عليه:

أنا رسلان أقضي عقوبة سجن هنا

ابتسم سريعًا أهلا رسلان

بدأت ضربات قلبي تهدأ قليلاً، ثواني وسألنى ما جريمتك يا رسلان؟ عاودت ضربات قلبي الإسراع مرة أخرى لعلي

أنتظر صفعة ثانية على وجهي تكسر فك وجهي فجاوبت سريعًا وصوتى يرتجف من الخوف:

تهمتي كانت سرقة حذاء صاحب المنزل الذي أقوم بحراسته .

بدأت علامات الحزن ترتسم على وجهه وقال بصوت متقطع أنا هنا مثلك يا رسلان، ولكن متهم في قضية سرقة كتاب

استرحت قليلاً عندما وجدت في حديثه بوادر اتزان وطلبت منه الجلوس على الأرض وطلبت منه أن يعرفني بنفسه

قال: اسمى تشرين

كانت الحجرة باردة جدًا والغطاء غير كاف للتدفئة قضيت ليلة سيئة حتى لاحت خيوط باهتة متسللة من وراء النافذة تنبئ أن النهار ربما جاء، استيقظنا سويًا تناولنا خبزًا يابسًا قديمًا، كان معه من زيارة زوجته له سد رمقنا نوعًا ما!

سألت تشرين: كنت متوقعًا عقوبة أقل بكثير من هذه العقوبة فلماذا كل هذه العقوبة؟

أجاب عليّ تشرين: هنا قوانين المدينة تغلظ العقوبة على

سرقة الأحذية وسرقة الكتب أشد عقوبة ..اندهشت لأمور هذه المدينة وقوانينها الغريبة، لكن لا بد من الاستسلام وقضاء العقوبة لا يوجد بديل غير ذلك.

.فقال متهكمًاك

أنا كلما انتهت العقوبة وخرجت، عدت لسرقة كتاب آخر ،ثم ادخل لأقضي عقوبة جديدة . .نظرت إليه واتسعت حدقتي هل هذا الرجل مجنون!

نظر إلى نظرة خبيثة وقال لقد سمعتك أنا لست مجنونا كما تظن

أفضل الكتب يا رسلان الذى تقرأها بعيدًا عن ضوضاء العقول الرثة لترى الفكرة جلية واضحة

...ابتسمت ! .

وأشار إلى قدمي وأنت أيضًا لو سرقت حذاءً آخر، ادخل هنا لتمشي به، هنا تجد الخطوات واسعة تشعرك بالحرية رغم قضبان السجن هنا، لن يزاحمك الناس في الشوارع، سترى الطريق ممهدًا ولكن في الخارج ستقاسمك الناس حلم الحرية..

وبدون إشارات مرور توقفك بدون نظرات متبلدة بدون حوادث سير تقضي عليك..

بدون تراب يعلق بالحذاء وتحتاج تنظيفه

هنا الحذاء لن يبلى يا صديقي ولكنه ربما يبلى بفعل الحرية فى الخارج يا صديقي..

لن نحتاج أن تركل هذا الرجل المار في الطريق الذي يحملق فيك كأنك حشرة في المجتمع، ستحتاج فقط أن تركل به زوجتك التي دائما تشكو ضيق الحياة معك ..

أما هنا، ستركل به نفسك فقط أنك نزيل ثقيل على الحياة بلا فائدة !

حتى الحذاء نفسه سيستاء منك لأنك حتى لا تملكه بل سارقه فقط !

كم لا مسني هذيان هذا السجين الغريب تمنيت أن تأتي زوجتي بالحذاء المرة القادمة في الزيارة، لأرى صدق كلامه، فجلست بجسدي المتعب على أرضية الحجرة.

أفكر كيف تمر عشر سنوات وأنا هنا مع هذا السجين الغريب؟

صممت أذني بيدي من ثرثرة الإجابات الكثيرة التي خرجت من عقلي الباطن

.. أشعل تشرين سيجارة أضاءت الحجرة، ثم اقترب من وجهي ودخان السيجارة يتطاير في وجهي، كف ثرثرة يا رسلان..

تعجبت كيف عرف الثرثرة بدون صوت!

كلما شعرت بغرابته، صممت على اجتنابه قدر الإمكان، قضى الليلة فى إشعال السيجارة والحملقة فيّ كأنه أول مرة يرى مخلوقًا بشريًا !

انزويت في ركن بعيد عنه حتى غلبني النعاس، راودني كابوس مزعج به مشاهد متقطعة لاتخلو من وجه صغيرتي التي تشحذ بين إشارات المرور والمارة يركلونها بأحذيتهم، صرخة صغيرتي من قوة الركلات أيقظتنى سريعًا من الكابوس، التفتّ يمينًا ويسارًا ، وجدت تشرين ما زال يشعل السيجارة!

وقال لي مبتسمًا: لا تقلق يا صديقي إنه فقط مجرد كابوس، شعرت بقطرات بول تسقط داخل سروالى! أسرعت ناحية باب الزنزانة أطرق الباب الحديدي بقوة لعل الحراس يأتون لينقلوني إلى زنزانة أخرى بعيدًاعن هذا المخلوق ..لكن بلا

جدوى أيضا، خارت قواي والتصقت بحائط الحجرة حتى لا أسقط على الأرض

ارتجف جسدي ثم اقترب هذا المسجون الغريب مني وأخذ يهدئ من روعي اهدأ اهدأ يا صديقي .. لم أجد ملاذًا غير أن أهدأ حتى لا يتوقف قلبي من الخوف بدأ يشعل سيجارته مجددًا حتى صرنا كالأشباح على الحائط من ومضة ضوء السيجارة المشتعلة، مد يده بقطعة خبز يابسة لي، مددت يدي وأخذتها منه ثم مد يده بسيجارة مددت يدى لألتقطها منه كأني مسلوب الإرادة، هو يدخن السيجارة وأنا أدخن معه هو يقطم قطعة الخبز أنا أفعل مثله!

مضت شهور وأنا أفعل مثله تمامًا تجنبًا لغرابته وجنونه، وضعت رأسي على كتفه وسألته:

هل لك زوجة؟

أجاب نعم.

وهل تشتاق لها مثلي؟.

أجاب: نعم بكل تأكيد.

.. أغمضت عيني وشرد فكري في زوجتي الجميلة ماذا تفعل الآن بدوني وسط العالم المليىء بالذئاب؟

غفوت قليلاً، شاهدت زوجتي تجري بملابس ممزقة تكشف جسدها، ثم استقرت تحت عمود إضاءة لتخرج من جيبها نقودًا تقوم بعدها ثم تذهب سريعًا إلى بائع الخبز وتشتري خبزًا، تسارعت ضربات قلبي كأني أجري معها فى الكابوس، فتحت عيني وجدت هذا الغريب بجانبي يلتصق بي كما كنا وهمس في أذني بصوت منخفض لابد أنها خانتك يا صديقي! لم أحتمل هذه المرة فقمت بإمساكه بقوة، وأخذت أضرب بجسده على الحائط وأرطم رأسه بالحائط حتى قارب أن يفارق الحياة بدأت أنفاسنا تعلو معا كأننا في سباق مع الموت، جذبته من يده ودفعته دفعة قوية على الحائط، سالت الدماء من فمه شكل الدماء جعلني أتراجع عن خنقه جريت مسرعًا ناحية باب الزنزانة، أستنجد بأحد ينقذه

سمعت صوت أقدام تقترب من الزنزانة تفتح الباب، ابتعدت قليلاً حتى يتثنى للحارس الدخول، وقال لي ما كل هذه الضجة في الزنزانة؟.

توسلت إليه أن ينقذ السجين المحبوس معي بسرعة، فنظر لى بدهشة!

وأخذ يبحث فى كل أرجاء الحجرة وقال لي أي سجين؟.

أسرعت وأشرت إليه لكني لم أجد ه!

قلت له كان هنا وكنت سأقتله نظر إليّ الحارس نظرة شفقة ومد يده إلى فمي ليجفف قطرات الدماء العالقة بجانب فمي، وقال يبدو أنك ارتطمت بالحائطفكل السجناء في الشهور الأولى هكذا حتى يعتادوا على السجن، ثم قال لي بصوت حزين الزيارة الأولى لك، وزوجتك تنتظرك

مشيت وراءه داخل الممر المؤدي إلى مكان الزوار أرجلي كانت تمشي بثقل على الأرض أنظر إلى أرجلي الحافية أتذكر كلمات لا أعرف من قالها ؟

أنا قلتها لنفسي أم نفسي قالتها لي!

لسعة الصقيع تذكّرني أن الشتاء جاء خصيصًا لأمثالنا الفقراء فقط، لنهتز من الصقيع كالورق في شهر أيلول، ثم نسقط صرعى على ممرات الشوارع فتدوسنا أقدام الربيع .

سرعان ما وصلت إلى المكان، وجدت زوجتي تنتظرني ومعها طفلتي قبلت طفلتي الحبيبة لكني كنت لا أحبها أن تراني بملابس السجن

جلست بجانبي تنظر إليّ وتهز أرجلها على الأريكة الخشبية، نظرت إليأرجلها المتسخة وهيي تهزها بعفوية الطفولة

كم كان منظر الاتساخ يشبه خطايا البشر على الأرض، ولكنها كانت خطايا غير عادلة لأنها تعلق دائمًا بالأرجل الواهنة، وسرعان ما تترك أثرًا على الأرض ثم نُتهم نحن الفقراء أننا سبب اتساخ الأرض!

نظرت إلى وجه زوجتي وجدتها أكثر اصفرارًا وشحوبًا عما كانت قبل، كأنها قرأت سؤالي ..فقالت أريد أن أخبرك خبرًا غير سار يا رسلان

لم اهتم بكلمة غير سار فى الجملة فكل ما يحدث في حياتنا غير سار وجودنا نفسه في الحياة حدث غير سار، التزمت السكوت حتى تكمل .

أنا حامل في الشهور الأولى وربما الأيام القادمة يشتد ألم الحمل ولن أتمكن من زيارتك اعتن بنفسك جيدًا، ثم سقطت

دمعة على حافتي خدها، مددت يدي أمسح هذه الدمعة من على وجهها ولكن داخلي حسرة بلا نهاية على مصير الطفل القادم غير المرحب به في هذه الحياة القاسية، توقعت الأسئلة التي ستلاحقه، شاهدت أعمدة الإنارة التي سيجلس تحتها عندما تنقطع الكهرباء من المنزل لأني لن أسدد فواتير الكهرباء المتراكمة علي شاهدته وهو يجري وصاحب المحل يريد الإمساك به ليسلمه الشرطة لأنه سرق بيضة الفطور، شاهدت أرجله المتسخة وهى تهتز على الأريكة هنا بعد أعوام.

تزاحمت كل هذه الثرثرة داخلي حتى سمعت صوت الحارس يقول بصوت عال: الزيارة انتهت !

لململت زوجتي الكيس الذي أحضرته وأعطته لى، قبض الحارس على يدي وسحبني للأمام وعيني شاردة على زوجتي وطفلتي المسكينة حتى وصلت آخر الممر واختفت زوجتي وطفلتي من أمامي وأنا أمر بالطريق مع الحارس إلى زنزانتي.

وجدت وجوها كثيرة تطل من وراء الأبواب الحديدية للزنزانات، تساءلت في نفسي: كم حذاءً سرق وكم كتابًا ؟ وكم حياةً؟ ومن السارق والمسروق هنا ؟

كلما اقتربنا من الحجرة، ثقل جسدي في المشي وقلت للحارس أرجوك أن تنقلني في حجرة أخرى، كان الحارس أقل قسوة من الأقدار التي تحوطني وجدته يغير اتجاه الممر وأنا مكبل بالحديد في يده، وقام بفتح حجرة أخرى، وقال لى: هذه حجرة جديدة سوف تعتاد عليها سريعًا، ابتسمت بمرارة أني أطلب بنفسي مكانا لأسجن فيه، دخلت بخطوات متبا طئة إلى داخل الحجرة

أغلق الحارس الباب سريعًا بالأقفال، الحجرة متسعة نوعًا ما عن الحجرة السابقة وأقل ظلامًا أيضًا، سمعت صوت اصطدام خشبي، نظرت إلى يساري وجدت رجلا يقول: كش ملك!

لم يبال بوجودي ولم يستدر ليعرف من هو النزيل الجديد معه !

جلست على الأرض وفتحت الكيس الذي أحضرته لي زوجتي، لعلي أجد به طعاما، وجدت داخل الكيس طبقًا صغيرًا به باذنجان وبعض حبات الطماطم بدون خبز، مددت يدي وأخذت ثمرة طماطم وقضمتها من شدة الجوع، فجأة

وجدت يدًا بأظافر حادة تمتد إلى فمي وتقتلع ثمرة الطماطم ويصيح في وجهي: الملك يقول لا تأكل الطماطم .

ارتعش جسديأي ملك ؟

أخذ يقلب في لعبة الشطرنج الخشبية التي معه وينظر لي ويقول:هذا الملك، لابد أنه كان منسجما في هذه اللعبة !

أخذت منه ثمرة الطماطم. لأكملها صاح مجددًا في وجهي؟

الملك لا يريدك أن تأكل الطماطم .

جلست بجانبه لأفهم قصده، وطلبت منه أن نكون أصدقاء، وسأكون سعيدًا لو أني لعبت معه لعبة الشطرنج حتى نقتل الوقت هنا، فأنا دائما أسمع عن هذه اللعبة ولكن لم أجربها، فقلت له أنا اسمي راسلان وأنت؟

رد بخجل أنا اسمى آسر ومحبوس هنا بتهمة قتل الملك

نظرت إلى وجهه وجدته يبدو عليه علامات الهيبة والذكاء، شعرت بالاطمئنان أن السنوات ربما تمر سريعًا بصحبة صاحب لاعب الشطرنج

مر الشهر الأول وهو يعلمني لعبة الشطرنج حتى أصبحت محترفًا مثله فجاء أخيرًا وقت اللعب معه، وقال لي: سأعدك إذا كنت أنت الفائز سأتنازل لك عنمنزلي وسيارتي، فأنا ليس لي وريث شرعي، لم أصدق ماقاله فهذه أمنية حياتي،لابد أن أبذل كل جهد للفوز.

فتحنا لعبة الشطرنج ووضعناها على الأرض ووزعنا القطع بطريقة متساوية، كانت أمامي قلعة كبيرة ضخمة أغرتني بالدخول، كان آسر ينظر إليّ من بعيد

دقائق وسمعت صوت أقدام بيادق حول القلعة، دخلت مسرعا ناحية بهو القلعة واختبأت وراء حائط كبير حتى لا يراني أحد، فجأة دخل الوزيروجلس على الكرسي الذي اختبئ أنا وراءه كتمت أنفاسي حتى لا يسمعها الجنود

نظرت من وراء الكرسي، خطف نظري ثياب الوزير الحريرية كانت تعطي ضوءًا لمسافات أمامه، انتابني الفضول، أنا ألمس بيدي هذا الحرير لو لمرة واحدة، تسللت أصابعي بخفة على ظهر الوزير من الخلف فلامست ثيابه ما أجمله من ملمس، هبّ الوزير واقفا فجأة فرفعت أصابعي سريعًا

من على ظهرهوأخذ ينهر البيدق ويسألهم بغضب: كيف لن نستطيع توفير كمية كبيرة من اللبن الذي يستحم به الملك الشهورالقادمة؟

رد البيدق: الأطفال كثرت في المدينة يا وزير ..واللبن بدأ يقل، سكت الوزير قليلاً ثم قال في دهاء: وأين مرضعات المدينة ؟ صمت البيدق طويلاً!

انتبابني الضحك من شكل الجنود أمام دهاء الوزير لكني تكتمت الصوت، مال البيدق ناحية أذن الوزير وهمس له فى أذنه: مرضعات المدينة أصابهن الهزال ولم يبق فيهن لبن يكفي حتى أطفالهم، أما مرضعات القلعة كما أمرت في المرسوم القديم إنهن يرضعن الكبير فقط

رد البيدق وضع الوزير في حيرة ، دعك ذقنه بأصبعه ربما تلاحقه فكرة تنقذه من يد الملك

صمت دقائق ثم قال بصوت غاضب: أحضروا كل مرضعات المدينة إلى هنا

انصرف البيدق ليحضر المرضعات يمتطي حصانه، وأحضر كل المرضعات إلى القلعة واصطففن جميعًا في صفوف

أمام الوزير، بدأ الوزير يحملق فيهن. ويتحسس أجسادهن، وجد عظام أجسادهن قاربت أن تقفز خارج جسدهن النحيف فأمر أن يأخذهم البيدق جميعًا إلى حجرة خصيصًا لهن وبها كل ما يشتهين من طعام وعسل وفاكهة.

اندهشت وحملقت من وراء ظهر الوزير: ياله من وزير رحيم!

مرت أسابيع وأنا أختبئ كل يوم بمكان فى القلعة حتى لا يقتلني البيدق

سمعت الوزير وصوته يملأ القلعة أحضروا كل المرضعات أمامي سريعًا فالملك قارب على مشارف القلعة..

اصطفت المرضعات أمامه

نظرت خلسة من وراء ظهر الوزيرعليهن كأنهن تبدلن تمامًا، اشتد عودهن وامتلأت أجسامهن باللحم ، وزال شحوب وجوههن، لم أتمالك نفسي من السعادة، كنت أتمنى أن أقبّل أقدام الوزيرعلى شفقته على هؤلاء الضعفاء وأطفالهن، لكن لم أستطع، تعالت ضحكات الوزير وطلب من البيدق أن يأخذ المرضعات ليتم حلبهن، والاحتفاظ باللبن لتقد يمه للملك حتى يستحم به فترة مكوثه فى القلعة.

تبدل امتناني لهذا الوزير الشرير إلى سخط عليه، اعتصر قلبي من الألمتسسللت خارج القلعة ليلاً بعيدًا عن أعين الجنود.

وجدت آسر مازال ينتظرني خارج القلعة، رويت له ما حدث وطلبت منه ضرورة أن يستنجد بوزيره فورًا لينقذ المرضعات من الحلب ويساعدهن على الهروب من القلعة، جاء الوزير فورًا على ظهر حصانه مستعدًا للمهمة، انتظرنا مجيء الليل دخلن جميعًا إلى القلعة توجه الوزير إلى حجرة المرضعات

وقتل البيدق المعين على حراستهم فحررهم جميعًا من الأسر وانطلقن خارج القلعة لأطفالهن، أبلغ الجنود فورًا الوزير الشرير بما حدث، انطلقت الأحصنة وراءهن كالريح لتعود بهن إلى القلعة ثانيًا، اشتدت المعركة، وقُتل وزير آسر، ثم وقعت المرضعات مرة ثانية في الأسر، وعاد جنود الوزير للقلعة وهربنا أنا وآسر منهم ، حزن آسر على وزيره وظل يبكي خارج القلعة، لاح موكب الملك على مشارف القلعة يزف قرب وصوله فسارع الوزير يأمربحلب المرضعات على الفور، وطلب إحضارهن جميعًا ، وقيد أيديهن وكمم أفواههن

فعل الجنود كل ما أمر به الوزير، وقيدوا جميع المرضعات، اقترب واحد من البيدق من أذن الوزير، وقال بصوت منخفض: سمعنا أن الملك جاء لعزلكضحك الوزير ساخرًا من البيدق قائلاً:

ربما ما سمعته مكيدة لنا لتحدث وقيعة بيننا وبين الملك

لم أجد وقتا لمواساة آسر على موت وزيره، لابد من فعل شيء لفك أسر المرضعات.

وجدت شباكًا صغيرًا يطل على داخل القلعة، صعدت إليه لأنظر ما يحدث اقترب البيدق من أول مرضعة وبدأ يخلع ثوبها حتى نهاية صدرها فتدلى ثديها خارجًا وهو ممتلئ باللبن، بدأ بمسك حلمات ثديها بقوة ليستدر لبنها

اعترانى الخجل من النظر إلى هذا المنظر البشع لم أطل النظر لتكملة المشهد. لم أطق أن أرى نهود النساء وقد تدلت على أشجار الظلم لتثمر ثمرة بطعم الزقوملن تستسيغها أفواه صغارهم صوت أرجل فيل الملك تقترب تهتز الأرض حول القلعة من وطأة أقدامه الضخمة، الملك وصل على باب القلعة قدمت له الجنود التحية ودخل إلى القلعة، صعدت مجددًا إلى

النافذة لأرى ما يحدث.

..وجدت أنه ما زال هذا البيدق يكمل مهمته امتنعت إحدى المرضعات وأخذت تضربه على وجهه، لكنه طرحها أرضا وأخذت تتوسل إليه أن يترك قدرًا من اللبن لوليدها حديث الولادة، ولكنه أخذ يضربها بقسوة

استدارات بوجهها، دققت النظر في ملامحها لم أصدق .. إنها زوجتى!

يالها من صدفة بائسة!

من جاء بزوجتى إلى أرض الشطرنج ؟

أحضرت آخر حصان لأقتحم به القلعة، وأخلص زوجتي من قبضة الوزير سمعت صوت أقدام حصان من خلفي، إنه آسر، جاء لمساندتي، هجمت على الوزير لكنه فر سريعًا خارج القلعة، بحثت عن الملك في الحجرات أخيرًا وجدته جالسا بالحجرة، مددت يدي إلى رقبته أحكمت القبضة عليها حتى خرّ ساقطًا على الأرض فرفعت يدي مهللاً بفوزي: كش مات.. كش مات.. كش مات.. وصوت الصدى يتردد ورائي يفخم صوت الفوز أكثر، أخذت أصيح كصياح الديكة فى

حظيرة الدجاج الخالية، لم أسمع صوت آسر يهنئني بالفوز حتى الآن!

ياله من حاقد!

لابد أنه عرف أن منزله وسيارته الآن ملكي ..صحت من جديد حتى يسمعني .. كش مات.. كش مات..

تلقيت ضربة قوية مفاجئة من الخلف؛ لعله آسر من شدة غيظه ثم صفعة على وجهي أخرستني، ما كل هذا الصياح يا سجين؟

إنه الحارس!

قلت له: لقد فزت في لعبة الشطرنج وقتلت الملك.

نظر لي بسخرية أي ملك وأي شطرنج؟

قلت: لقد تراهنت أنا والسجين الذي كان معي صاحب لعبة الشطرنج، أنه فى حالة فوزي؛ سيتنازل عن منزله وسيارته لي، وها أنا قد فزت وقتلت الملك.

فقال لي ساخرًا: لا يوجد فى الحجرة هنا سجين غيرك! وسألني أنت معترف بقتل الملك؟

أجبت بكل ثقة: نعم قتلته

فقال لي: غدًا سيتم تحويلك إلى محاكمة جديدة ليضاعف لك العقاب، اهتزت أقدامي على الأرض، وقُدمت في اليوم التالي للمحاكمة وحكم عليّ بالسجن عشر سنوات أخرى، لا أعرف مبررًا لإصرار العالم أن يعاقبك حتى على اللاوعيأو ربما هو وعي آخر!

انتقلت لمكان آخر للحبس، اصطحبنى من يدي حارس جديد ذو وجه مريح وملامح هادئة طيبة، كنا نتبادل النظرات الجانبية لبعض أنا وهو ولكن بصمت. كسرت لحظات الصمت كلماته لم أفهم بعضها وبعدها أشار بيده على جدار كنا نمر أمامه وقال لي تعرف ماذا يوجد خلف جدار السجن يا رسلان؟

اندهشت كيف حفظ اسمى سريعًا هكذا، لكنى بدأت أفكر في سؤاله، لم أجد إجابة غير الإجابة التي تروادني دائمًا يوجد خلف جدار السجن حرية مرهقة التفاصيل، لكنه وكأنه لم يسمع شيئًا وأكمل حديثه: يوجد يا رسلان دول معادية تفتح نافذة ضوئية كبيرة علينا تشبه شاشة العرض والضوء ينفذ

من خلال الحائط المشترك بيننا وكل من يمر أمام هذه النافذة يتأثر بهذا الضوء على الفور فكن حذرًا ونحن نمر وحاول أن تتفادى ضوء هذه النافذة .

شعرت بوخز في جسمي من كلامه جعلني أمر بحرص وحذر وخطوات متلكئة متلفتًا يمينًا ويسارًا، فجأة شعرت بشيء ثقيل يتحرك داخل جيبي أدخلت يدي سريعًا إلى جيبي لأعرف ما هذا الشيء؟

تشتت ذهنى من هذا الثقل لم أجد شيئا داخل الجيب!

رفعت رأسي فوقعت عيني على هذه النافذة الضوئية.

التى حذرني منها الحارس رغما عني !

فقال الحارس متهكمًا رغم كل التحذيرات وقعت تحت تأثير هذا الضوء!

فلتنتظرني هنا حتى أكمل إجراءات نقلك إلى محبسك الجديد، ولكن اجلس في هدوء.

وقام بتقييد يدي حتى لا أتمكن من الهرب، جلست في هدوء، كم مر عليّ العام الأول هنا كأنه دهر كامل!

ضوء خافت بدأ يتسلل إلى عيني جذب عيني بشدة إليه، اقتربت من الشاشة وجدت رجلاً يشبهني تمامًا، ولكنه مهندم الثياب يلبس ربطة عنق جميلة، وله شعر لامع ووجه نظيف، دفعنى الفضول أن أنظر لقدمه، وجدته يلبس حذاءً جلديًا جميلاً أجمل من الذي سرقته ..حب الفضول دفعني أن أعرف المزيد عنه فسألته من أنت؟ .

. أجاب بهدوء اسمى رسلان ..تعجبت! إنه يحمل نفس اسمي !

ولكنه كان مبتسمًا، عكسي تمامًا!

يظهر في الخلفية وراءه منظر منزله الفاخر والصور الزيتية الثمينة وأساس منزل أنيق كم من فرق شاسع بين الوجوه والتفاصيل، حتى لو تشابهت الأسماء أظن أن الأقدار لا تتفق على اسم أحيانا! ابتعدت عن الشاشة حتى لا أصاب بمزيد من الخيبة، جلست أفكر فيما مضى وما هو آت، وجدت نفسي كالمسافرالذي دهسته عجلات القطار وهو يتأهب لركوب القطار القادم، لا أحد يلملم أشلاء جسده من على القضبان سوى حزمة هواء تجفف لحمه حتى لا تزعج رائحة جيفته المسافرين الآخرين!

أنا كذلك هنا، أجيف رغم أني مازلت حيًا ولكن لم تأت بعد حزمة الهواء لأنها ممنوعة من الدخول إليّ، ابتعدت للوراء عن الشاشة وعن وجه رسلان الآخر الأنيق.

جلست على الأرض و ضعت رأسي بين ركبتي وأغلقت عليها بعظمة ركبتي وضغطت عليها بقوة. لعلها تتوقف عن التفكير، صوت ضحكة عالية جعلتني ارفع رأسي وأخرج جمجمتي من بين ركبتي.. وجدت صورة أنثى تملأ الشاشة ملامحها صارخة الجمال بدون وعي زحفت وأنا جالس على الأرض لأقترب من الشاشة لأرى هل هذه حقيقية ؟

نعم إنها حقيقية، قمت واقفًا أقترب من الشاشة بوجهي، التصق وجهي بوجههاحتى ظننت أن أحمر شفاهها سيترك أثرًا على وجهي.

لمسة وجهها رغم جدار الشاشة أيقظت رغبتى، تحسست عضوي الذكري وجدته منتفخًا، ياله من إحساس مقيت، رغم أن كل ما فينا يموت بداخلنا لكن هذا العضو لم يمت!

عبث بحبل أفكاري فجأة شريط قصير بدأ يمر أمامي به جسد زوجتى الضعيف وملابسها القديمة وأنا أضاجعها على السرير البالي القديم في حجرة متسخةأغمضت عيني

بقوة فاندفعت قطرات ماء دافئة داخل سروالي أدخلت يدي لأتحسسها، نعم إنه هو مني الرغبة، فضحكت، نعم إنني مازلت رجلا برغم ما يحدث !

ظهر رسلان الأنيق في الشاشة مع الأنثى الحسناء تضايقت أنه جاء في وقت حرج كنت أريد الانفراد بها لو دقائق على الشاشة

اقترب رسلان الأنيق من الأنثى وبدأ يقبلها وهي تقترب بجسدها منه

بدأت الغيرة تشتعل داخلي صرخت ابتعد عنها ابتعد عنها أنا أريدها لو لدقائق.

لكنه كان كالأصم لم يكترث لصوتي ثم بدأت تخلع ملابسها ثم تبتسم لي كأنها تريدني أنا لكن رسلان الأنيق لم يترك لي فرصة، احتضنها بقوة وأخذ يتحسس صدرها اللامع الجذاب، لكنها مازلت تركز النظر إليّ بعيونها الواسعة الساحرة بدأت تطلق تأوهات جعلتني لا أطيق الاحتمال، شعرت بانتفاخه مجددًا

أظلمت الشاشة فجأة ثم أنارت من جديد وظهر رجل

يعلن أن العرض قارب على الانتهاء ولابد من المشاهد أن يترك لنا هدية ثمينة حتى نكمل له العرض.

جن جنوني اقتربت من الشاشة أكثر وجدت وجه هذا الرجل يملأ الشاشة ..أين ذهبت الأنثى الحسناء؟

جسدي يشتعل، ارتبكت من أين آتي بهدية ثمينة؟ اقترب مني الحارس بخطوات إنه أيضًا عاد في وقت حرج !

أمسكني بقوة من يدي لمحت فى يده ساعة يد كبيرة تلمع

قمت بسرعة باقتلاعها من يده رغم مقاومته الشديدة اقتلعتها من يده ومددتها بسرعة لهذا الرجل الظاهر في الشاشة مد يده وأخذها ثواني وبدأت الحسناء تظهر من جديد ومعها رسلان الأنيق يتبادلان القبلات الملتهبة، لم تهدأ رغبتي لماذا رسلان الآخر وليس أنا !

أريد أن أتحسس جسدها أنا أيضًا، لكن ما عليّ غير الاكتفاء بالمشاهدة فقط مازالت الحسناء تنظر إليّ برغبة جامحة تعلنها نظراتها الحادة

بدأت تلوح لي بيدها، وتقول بصوت متغنج: اقترب اقترب هنا، لم أجد وسيلة غير القفز إليها من الشاشة لم يفصلني عنها سوى سنتيمترات اقتربت منها التصقت بها

لكنى تراجعت للوراء خطوة من رائحتها الكريهة التي تفوح من جسدها وفمها وهى أيضا تتفحصني بتمعن وقالت بلا مبالاة: من أنت أيها الحقير؟

وقذفت ساعة اليد في وجهي وقالت غاضبة اغرب عن وجهي، وبصقت على وجهي مرات..

لم أتمالك نفسي من الحماقة فصفعتها على وجهها الجميل الخادع

وأخذت أصرخ وأضرب الشاشة بساعة اليد التي معي حتى انكسرت الشاشة وبدأت تتساقط كقطع السكر على الأرض، مددت يدي إلى داخل سروالي وجدته مبتلاً كيف خدعت وظننت أنه مني الرغبة، إنها دموع البؤساء

ضربت رأسي على الحائط مرات، يد الحارس تلمس كتفي يطلب مني أن أهدأ!

استدرت ومسكت يده أقبلها أن بسامحني أني سرقت ساعة يده لكنه نظر لي في دهشة، أنت لم تسرق ساعتي فساعتي مازالت في معصمي..

اهدأ يا رسلان .. دقائق

لابد أن نضعك في الحجرات المخصصة لمرضى الأمراض العقلية؛ لأن حالتك تزداد سوءًا كل يوم، أصبت بحسرة على نفسي من الكلمات التي تفوّه بها الحارس، لايسعني سوى أن أصدق أني مريض عقلي بالفعل ..

سرنا في ممر ضيق طويل، وصوت الضجيج العالي يخرج من الحجرات أمام الممر حتى استوقفني الحارس أمام حجرة وقال لى ستكون هذه حجرتك، إنها هادئة نوعًا ما، فك القيود من يدي ودخلت إلى الحجرة وجلست على سرير وجدته خاليًا وتركني الحارس وأغلق الباب جيدًا.

الحجرة هادئة لايوجد بها مرضى سوى مريض واحد نائم، شخيره يملأ الحجرة وتوجد زجاجات دواء بجانب سريره، لم يغمض لي جفن في هذا المكان الجديد وهذا المريض الذي لا أعرف علته

الشخير يزداد مع مضي الوقت لم أحتمل صوت شخيره. وضعت وسادة خفيفة على وجهه حتى تكتم الصوت قليلاً، النعاس بدأ يتسلل ويرخي جفوني رغم أنفيحتى دخلت في نوم عميق.

سرعان ما تبدد نومي من صوت الشخير الذي بدأ في الضجيج مرة أخرى. نظرت إليه وجدته بدأ يتقلب بجسده على السرير، وأخذ يهذي بكلمات غريبة

فضلت عدم الاقتراب منه والجلوس على سريري، ولكنه بدأ ينظر إلي ويصرخ. ويشير بيده إلى زجاجة الدواء، ويقول أعطني هذا الدواء كأنه يستنجد بي.

بيد مرتعشة مددت يدي إلى زجاجة الدواء، وفتحتها وأعطيت له ملعقة منها وجدت حالته في تحسن غريب!

نظر إلي، لم يستطع تحريك لسانه لكننى عرفت أنه يريد أن يقول أنا ممتن لك وأغلق عينيه وبدأ في سيمفونية شخير جديدة !

حاولت أن أصرف ذهني في شيء آخر حتى لا أصاب بجنون آخر

اشتقت لصوت طفلتي وهل زوجتي وضعت أم لا ؟ وماهو جنس المولود؟

ولماذا كل هذا الغياب عن زيارتي ؟

لم أجد سوى صدى لثرثرة داخل جمجمتي غير واضحة لهذه التساؤلات

أطل هذا الرجل من تحت الغطاء برأسه وحملق فيّ بشدة كأنه أول مرة يراني!

وأشار بيده ثانيًا إلى زجاجة الدواء كأنه يريد جرعة دواء جديدةلكنني استدرت بوجهي عنه، كأني لم أرقبه، لم يجد جدوى مني

أخذ يهذي بصوت منخفض جدًا. وفتح زجاجة الدواء وأخذ جرعة منها ثم زحف بجسده على السرير وأغمض عينيه مجددًا ودخل في غيبوبة نومه الغريبة المختلطة بصوت شخيره الأغرب.

صوت الأسئلة بدأ يلوح من جديد في رأسيلكني وجدت كالعادة أسرابا وهمية من الإجابات. محاطة بقيود حديديةفلماذا أنا هنا ؟

وصاحب الحذاء بالخارج ؟.

والفجوة بيننا خطوات من الوحل أسير بمفردي بقدم حافية فيها ؟

شردت بذهني إلى عالم مليء بضجيج وثرثرة نشاز تطربني أنا وحدي ثم يبتسم العالم لي بثغر ماكر شعرت بضيق

تنفس من اليأس

لا توجد نافذة تمنحني تيار هواء يخترق صدري، فقط يوجد صوت هذيان هذا المريض من جديد يملأ فراغ الحجرة.

ثم اختلط الهذيان بصوت زعيق أعطني جرعة دواء أخرى

نظرت إلى هذا المعتوه وسألته: هل تريد أن تموت من هذه الجرعات المتكررة ؟

أجاب أنا أريد فقط الهروب لا الموت.

سألته أي هروب الذي تهرب منه بهذا الدواء؟

أريد أن أهرب من الزلزال.

أعرف أنه مختل ولاداعي للتركيز فى إجابته فهبّ واقفًا وأخذ يقبّل يدي

أرجوك.. أرجوك، افتح هذا الدرج

ترددت أن أنفذ طلبه، لكنه بدأ يقبل يدي الأخرى، ويكرر من فضلك افتح هذا الدرج

لم أجد وسيلة لإيقاف توسلاته سوى فتح الدرج، لأرى ماذا يخبئ هذا المعتوه في الدرج بالغ الأهمية هكذا !

فتحت الدرج لم أجد سوى قلمًا وورقًا، أخرجتهم بسرعة وأعطيتهم له.

فأعادهم لي: خذ أنت هذا القلم والورق وأكمل روايتي..

لم أحتمل غرابة هذا المريض أكثر من ذلك، فجلست على سريري وابتعدت عنه وأخذت أنظر إليه من بعيد ، فأي رواية هذه التي سأكملها أنا!

تمنيت في هذه اللحظة أن أتناول أنا أيضًا معه جرعة منوم من زجاجته حتى أنام وأتخلص من هلوسته .

بدأ يرتعش بكل جسده على السرير وأخذ يصرخ أرجوك أنقذني وأكمل الرواية

لم احتمل صراخه اقتربت ناحية سريره وهدأت من روعه قليلاً، وطلبت منه أن يوضح لي أي رواية ؟.

دموعه كانت تسبق إجابته شعرت بشفقة عليه

كم هذا العالم موحش عندما يبكي الرجال فيه !

وكم هو أسوأ عندما تغمض الأهداب، وداخل المقلة دمعة متحجرة

رأيته يتكلم بطلاقة غريبة أنا كاتب وكنت شرعت فى كتابة روايتي الأولى وتعاقدت مع دار نشر وأعطتني مبلغا من المال دفعة مقدمة ولكن حدثت مفاجئة غير متوقعة تعرضت مدينتى لزلزال كبير عصف بمنزلي وجعله يتحرك لمدينة أخرى بعيدة عن قارتي التي كنت أسكن فيها

وانقطع التواصل بيني وبين دار النشر ولم أعرف طريقها، مرت شهور وعندما كنت أمر عند بائع الصحف القريب من منزلي وجدت صورتي تتصدر الصفحة الأولى وخبرًا يقول إنى مطلوب القبض على بتهمة النصب على دار نشر كبيرة وترصد مبلغًا ماديًا لمن يدلي بأخبار عني، تناولت الجريدة وبدأت أدقق في قراءة الخبر مما لفت انتباه بائع الصحف وأخذ ينظر إلي وينظر في الجريدةثم أمسك بي بقوة طالبًا الشرطة للقبض عليّ حتى يتمكن من أخذ المبلغ منهمفي حالة القبض عليّ، لكني طلبت منه أن يسمعني بهدوء ليعرف حقيقة الأمر؛ فأنا لست سارقًا كما تصورني الجريدة ، لكن بلا جدوى، لم أتمالك نفسي حتى أحكمت قبضتي على رقبته بدون وعي حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي

التفت المارة حولي وطلبوا لي الشرطة، لم أتمكن من

الفرار وتم التحقيق معي وقلت لهم ما حدث فعلاً، أن الزلزال هو السبب وأنا لست محتالاً؛ فأنا كاتب شريف ولكنهم اتهموني بالجنون وأودعونى فى سجن الأمراض العقلية لأقضي عقوبتي الطويلة وأنت أول شخص أقابله هنا منذ دخولي السجن وأتوسم فيك الخير.

فأرجوك ساعدني وأكمل الرواية ثم سلمها لدار النشر حتى ينصفني العالم وعائلتي الصغيرة التي تركتها بعار سيلحق بها إلى الأبد فلن تتزوج طفلتي لأني محتال ومجنون، ولن يصادق أحد ابني لأن أباه مختل عقليا، ولن تتمكن زوجتي من النظر إلى وجه العالم وزوجها كاتب محتال وسجين، أرجوك أرجوك أن توافق وتكمل الرواية؛ فأنا لم أعد قادرًا ذهنيًا على كتابة شيء فأنت كما تراني، أريد فقط جرعة منوم تساعدني على الهروب من قسوة العالم

سمعت كل ما قاله ولم أقاطعه إطلاقًا، وشعرت بصدق شديد فى كلامه. لكنى ترددت قليلاً، كيف أكون كاتبًا وأنا لم أكتب شيئًا من قبل!

لكن كل ما عليّ أن أكتب وأخوض التجربة لإنقاذ هذا المسكين

أخذت منه القلم والورق، بدأ يرتعش ويحرك السرير بقوة.

فقلت أول شيء أفعله قبل أن أكمل فصول روايته أن أعطى له جرعة منوم؛ حتى أكتب في هدوء بعيدًا عن هذيانه المعتاد، أعطيت له ملعقة دواء فاسترخى قليلاً ثم بدأت سيمفونية الشخير تعزف من جديد؛ فالشخير عندي أرحم قليلاً من الهذيان.

جمعت كل أوراقه ورتبتها وجدت أنه مازال فى الصفحة الأولى فقط، وهذا عبء كبير عليّ إكمال رواية كاملة لكن ما علي أولا إلا أن أتقمص دور الكاتب أغمضت عيني قليلاً حتى أدخل في التقمص بحق، ثم عاودت وفتحت عيني وأمسكت القلم، أنا الآن الكاتب الحقيقي للرواية، نظرت إلى المقدمة وجدتها لا تلمس شيئًا داخلي بصفتي الكاتب الجديد للرواية فشرعت في كتابة مقدمة أخرى تليق بي ربما سينصف العالم هذا المسكين ويتوجني أنا كاتبًا جديدًا وقعت عيني على اسمه فى توقيع المقدمة أنه الكاتب كانون

أمسكت القلم وجدت السطور مسترسلة داخل عقلي بدون عناء فشرعت في كتابة مقدمة الرواية:

أيتها الأرض البديلة رفقًا بنا ورفقًا بعلات أنفسنا؛ فأنت التي رحلت من تحت أقدامنا وليس نحن، فالمكان هناك في البعيد المنسي وأرواحنا هنا في القريب المدان فلست وحدك الأرض البديلة فأنا أيضًا العقل البديل ربما سنتقابل يومًا من قبيل الصدفة أتمنى أن تمنحيني شرف هويتي الإنسانية لا رماد التصدعاتقد تبتلعين يومًا جسدي أو جسد طفلتي الصغيرة وجسد جارتي العجوز فلا تجرفينا بعيدًا اتركي لو بقايا عظام بجانب التل لتبكي طفلتي على أرض كان لها يومًا عنوان، اتركي بقايا الحب منثورًا، ليعود عصفوري الحزين أعلى النافذة حتى وإن لم يجدني هناك فهو حتمًا سيغني لأنه عصفور.

انتهيت من كتابة المقدمة، وانبهرت بنفسي كيف تمكنت من كتابة هذه المقدمة؟

فلابد أني موهوب بالفعل وأنا لا أدري!

هذا السجين سأكون ممتنًا له لو نجحت هذه الرواية، وسأكون من المشاهير وسيكتب اسمي على أغلفة الصحف والمجلات الكبيرة وسأشتري لطفلتي حذاء جديدًا وملابس جديدة لمولودي القادم وملابس لزوجتي الحبيبة الوفية

وأشتري منزلا من طابقين له حديقة صغيرة، يالها من أحلام جميلة قاربت أن تتحقق،ازداد حماسي أن أدخل في كتابة أحداث الرواية. شرد ذهني قليلاً

من أين آتي بالأبطال ومن هم ؟

فأنا لا أعرف غير زوجتى وطفلتي وأنا، إذن سأوزع أدوار البطولة علينا فهم أحق ببطولة روايتي الأولى، كنت أقف في وظيفتي المعتادة أمام المنزل المكلف بحراسته..

كنت أنتظر آخر اليوم بلهفة حتى يخرجصاحب المنزل السيد تموز و يعطيني بواقي الطعام لأذهب به إلى زوجتي لتسد رمقنا لوجبة العشاء وأحيانـًاليوم كامل لم أكتف بوظيفة حارس المنزل فقط بل كنت ماسحًا سيارة السيد تموز وإطعام كلابه أيضًا، أعود كل ليلة إلى منزلي الحقير بجسد متعب ثم ألقي بنفسي على السرير وأحملق فى السقف وأسأل نفسي ماذا يوجد فوق هذا السقف المهترئ؟

مؤكد ستكون السماء فوق هذا السقف، وماذا سيكون فوق السماء؟

مؤكد سيكون الرب، ولكن هل الرب يراني بحالتى البائسة؟

دخلت صغيرتي، قطعت تسلسل تساؤلاتي: أبى أريد لعبة صغيرة شاهدتها على العربة في السوق، احتضنتها بقوة حاضر يا حبيبتى

لكنها رجعت إليّ سريعًا: أبى إن لم تشتر لي اللعبة سأسرقها من على العربة وانصرفت.

فزعت من كلامها حملقت في السقف مجددًا وخلدت للنوم هروبًا من الأسئلة استيقظت على صوت الباعة في هذا الحي الشعبي وضجيج حناجرهم تملأ الشارع.

قفزت بسرعة داخل معطفي القديم لآذهب إلى عملي مررت في الشارع المقابل لمنزلي وجدت العربة وعليها اللعب تذكرت طفلتي أدخلت يدي في جيبي فخرجت بخيوط البنطلون!

فأكملت السير ناحية عملي.

بدأت السماء تمطر زخات خفيفة، فابتل معطفي القديم

وصلت مبتلاً إلى السيد تموز فنهرني بلهجة حادة، أدخل الكلاب إلى الغرفة الخاصة بهم بسرعة قبل أن يبتلوا بالمطر، لكنه لم يكترث بمعطفي المبتل! حل المساء وبدأت زخات المطر تقل، نادت علي خادمة المنزل السيدة آيار، وأعطتنى

علبة كبيرة طعامًا للكلاب نظرت إلى العلبة وجدتها أنيقة المنظر، وفي يدها الأخرى كيس كبير محكم الغلق قالت إنه لك يا رسلان تحسست الكيس وجدته ممتلئًا.

فرحت أني سأذهب اليوم إلى منزلي بكيس ممتلئ بالطعام فغادرت سريعًا إلى منزلي من السعادة، ونسيت طعام الكلاب فى يدي الأخرى ولكني كنت تجاوزت مسافة بعيدة، فقررت عدم العودة، وصلت إلى منزلي وقمت بفك الكيس سريعًا فإذا بطفلتي تدخل يدها داخل الكيس وتخرج ما فيه من الجوع.

فأخرجت عظامًا تكاد تكون محاطة باللحم !

فسألتني ماهذا يا أبي ؟

لم أجد إجابة بائسة من شكل العظم فقلت لها إنها بقايا دجاج ياصغيرتي!

نظراتها بدأت تتشتت ناحية العلبة الأنيقة

وخطفتها مني: أبي أريد هذه فجذبتها بسرعة من يدها هذه ليست لك ياصغيرتي لكنها أخذت تبكي بشدة: أبي أريد هذه العلبة ، خبأت العلبة في مكان بعيد عنها. لكنها ظلت تبكي حتى غالبها النوم ، فحملتها زوجتي ووضعتها على السرير

اقتربت زوجتي منى تسألني مابك يا رسلان أراك حزينا دائما ؟

أجبتها وماذا يحصد الفقراء مثلنا غير الحزن ؟

وجدت دموعها تتساقط على وجنتيها المتسختين ، لامست يدي أصابعها الجافة فتشابكت أيدينا لم ننس وسط معمعة القسوة أننا بشر، فالرغبة لا تبلى كما تبلى الأقدار، افترشنا بقايا غطاء قديم على الأرض فا حتضن جسدانا المتسخان بعضهما حتى اقتلعت رطوبة الأرض جذوة الرغبة فنهضنا من قسوة الأرض

لاح في الأفق شعاع شمس متسلل من شروخ الحائطيبدو أن الصبح قد جاء صوت بكاء طفلتي يخترق أذني، خرجت من الحجرة وجدت زوجتي تضربها امتد بصري إلى الأرض وجدت العلبة فارغة وآثارها تملأ فم طفلتي عرفت أنها أكلت طعام الكلاب

اعتصر قلبي من الحزن واحتضنتها وجدتها تبتسم ببراءة الأطفال: إنه لذيذ يا أبي أحضر لي علبة أخرى اليوم

فطلبت من زوجتي أن تكف عن ضربها، وقلت لها ربما لم

تكذب، احتمال أن يكون لذيذا بالفعل !

فأنا لم أسأل الكلاب قط عن طعامها لكني لاحظت أن الكلاب دائمًا سعيدة!

انصرفت إلى عملي ومعي الكيس المليء بالعظم لإطعام الكلاب بدلا من الذي أكلته طفلتي، فهم أكيد جوعى من الأمس وصلت إلى حديقة المنزل فأتت الكلاب مسرعة ناحيتي من الجوع فتحت الكيس ووضعت مافيه في الطبق المخصص لهم بدأوا يلتفون حول الطعام ويقربون أنوفهم منه بحذر وبدأوا ينبحون بصوت عال، حتى سمعهم السيد تموز وجاء مسرعًا هو والخادمة ليرى ما ذا حل بهم، فنظر إلى طبق طعامهم، وقام بخلع حذائه وانهال بالضرب به على رأسي حتى كدت أفقد الوعي.

وقال لي ساخرًا هم لا يأكلون العظام ياغبي، اعتذرت له خوفًا من طردي فانصرف متجهم الوجه، همست في أذني الخادمة: أين طعام للكلاب المخصص لهم؟

لا أعرف ماذا أقول لها ؟

هل سأقول إن طفلتي وجدته ألذ من العظام المحاطة

بلحم شحيح من الدجاج التي تعطيه لى كل مساء؟ لذا فضلت الصمت وعدم الإجابة عليها

فجأة بدأ المطر يهطل علينا أنا والخادمة في الحديقة فجلسنا تحت مظلة تحمينا من المطر تفحصت وجهها من قرب، وجدتها ذات ملامح ساحرة وجسد ممشوق وبياض ناصع كيف خفي هذا الجمال عن نظري طوال هذه الفترة التي أعمل معها عند السيد تموز؟ فهل قبح الحياة حجب عنا كل شيء جميل جعلنا لا نراه وهو أمامنا ؟

المطر بدأ يتوقف لكني كنت في داخلي أتمنى أن يطول الوقت أكثر للجلوس بجانبها فهي حنونة وعطوفة إلى حد كبير، قامت واقفة تستأذن لتنصرف إلى المطبخ لتعد الطعام لأسرة السيد تموز، جلست وحدي تحت المظلة ألمح من بعيد وجوه الكلاب في الحديقة فهم أكثر سعادة مني تذكرت ضربة الحذاء المبرحة على رأسي من قبضة السيد تموز.

فكم نبحنا نحن من الجوع ولم نجد أحدًا يضرب الجوع بضربة حذاء، بل كان العالم يضرب بطوننا الخاوية!

عدت إلى المنزل وكلما مررت بجانب عربة اللعب أتذكر

أمنية طفلتي الصغيرة أحملق في اللعبة أقلبها يمينًا ويسارًا ثم أضعها مكانها فهذه اللعبة لاتريد يد طفلتي البائسة المتسخة.

دخلت إلى منزلي الرث، ورائحة الرطوبة تفوح منه خارج باب المنزل

لم أجد صوت طفلتي المعتاد تستقبلني على الباب كالعادة بحثت عنها في الحجرة لم أجدها هي وزوجتي، أين ذهب الاثنان في هذا الوقت المتأخر من الليل! قلبت أواني الطعام، لم أجد حتى بقايا طعام من الصباح، شعرت بقلق لاحتمال خروجهم من الصباح حتى الآن !

ما علي غير الانتظار المقيت الذي أكرهه .. مرت ساعات واشتد القلق أكثر.

أين أبحث عنهم في هذه الليلة الباردة في الشوارع، أخذت انظر من نافذة خشبية صغيرة مطلة على شارع أضيق لعل أجدهما عائدتين، بعد ساعات مملة سمعت صوت باب الحجرة لعلها زوجتي هي وطفلتي، نهضت من السرير وجدتهما، سألتها على عجالة بغضب أين كنتما في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

ردت متلجلجة شعرت بتعب وذهبت إلى المستشفى.

انطفأ غضبي قليلا بمجرد سماعي السبب، طلبت منها أن تستريح وجدت وجهها شاحبًا ضاربًا الى الصفرة حتى طفلتي لونها مائل للصفار أيضًا من شدة برودة الطقس.

أخرجت من كيس كان معها رغيف خبز ومعه قطعة جبن وقالت لي: خذ هذا الرغيف الجو بارد جدًا ويحتاج إلى طعام سألتها من أين اشتريت هذا الرغيف والجبن أجابت:

أحد المارة فى الطريق أعطاهم لنا أخذت منها الرغيف وقطعة الجبن وتقاسمته أنا وهي وطفلتي وطلبت منها أن تستريح حتى لا يعاودها التعب مرة أخرينظرت طفلتي إليّ وسألتنى السؤال المعتاد أين اللعبة يا أبي؟

ودائمًا أجيب نفس الإجابة اللعبة على العربة في السوق وسأشتريها لك يا صغيرتى يومًا ما، حاولت إغماض عيني لكن بلاجدوى

لا أعرف كيف مرت صورة خادمة السيد تموز بخيالي فجأة دون مقدمات صوتها بدأ يتردد في أذني ابتسمت ابتسامة خفيفة وأنا بجانب زوجتي اندهشت وسألتني لماذا تبتسم

هكذا وأنت نائم ؟

فقلت لها لأن الابتسامة محرمة عليّ، أن تزورني وأنا في اليقظة يا زوجتي الحبيبة.

لأول مرة انتظر أن يأتي الصباح لأول مرة أتيقن أن الأمنية ستأتي لأن لكل ليل لابد من صبح يتبعه ، جلست في مكاني المخصص لحراسة المنزل

لم ألمح خادمة السيد تموز في الحديقة ككل يوم، مرت ثلاثة أيام ولم أر هذا الوجه الجميل البريء في الحديقة ولم أجرؤ حتى على السؤال عنها.

فجلست في مكاني أترقب ظهورها، لا أعرف ما هذا الشعور الذي انتابني ناحيتها هل هذا مايسمى الاشتياق؟

بدأت أهرب من الإجابة حتى لا تكون هي، فزوجتى لا تستحق الخيانة فهي تحملت كل المعاناة لأجلي تعمدت أن أتوقف عن التفكير

سمعت خطوات تقترب مني من الخلف إنها هي خادمة السيد تموز حاملة كوبًا من الشاي وقطعة من البسكويت لم أستطع أن أخفي سعادتي.

سألتها بلهفة أين كنت؟

أجابت: كنت في إجازة أرعى طفلتي المريضة ، وأعطتني كوب الشاي وقالت هذه لك اندهشت وقلت لي أنا ؟

قالت نعم يا رسلان فأسرة السيد تموز غير موجودة اليوم، خذ لا تخف، لا أحد يراك

أخذت كوب الشاي وقطعة البسكويت وجلسنا تحت المظلة في الحديقة كانت تنظر لي كأنها تريد أن تسألني سؤالاً ولكنها ترددت

وأنا أيضًا كنت أود أن أسألها سؤالاً ولكني أيضا ترددت ولكنها كانت أجرأ مني فسألتنى أنت متزوج يا رسلان ؟

أجبت نعم متزوج ولدي طفلة.

تغيرت ملامح وجهها عندما سمعت إجابتي!

وجدت من الأنسب أن أسالها أنا أيضًا نفس السؤال هل أنت متزوجة نظرت إلى الأرض بحزن وقالت أنا أرملة ولي ثلاثة أولاد وأعمل عند السيد تموز منذ خمسة أعوام ثم صمتت ثانية وأكملت الإجابة ولي طفلة مريضة بمرض السرطان

شعرت بالشفقة عليها ، استأذنت للذهاب إلى المطبخ

جلست وحدي تحت المظلة بذهن مشتت كنت أظن أني وحدي الذي يعاني في هذا العالم الواسع لكني وجدت معاناة أخرى بصور أخرى تحقر و تصغر من معاناتي، فلماذا أذهب إلى منزلي كل يوم بوجه عابث؟ ولماذا يعتصر قلبي أن طفلتي أكلت من علبة طعام الكلاب ؟

ولماذا انظر إلى عربة اللعب وأنا حزين ؟

ولماذا أتضرر من رائحة الرطوبة في منزلي ؟ ولماذا لا أبتسم وأنا مستيقظ ؟

فمن الآن سأضحك عندما أمر بعربة اللعب وأقول: لا يهم إن طفلتي لن تشتري لعبة فالحياة أكبر لعبة !

ولن أتضرر من رائحة الرطوبة في منزلي، سأ شعل بعض الحطب للتدفئة

وسأقتسم علبة طعام الكلاب مع طفلتي لأن فيه فيتامينات تجعلنا لا نشعر بالجوع سريعًا مثل طعام البشر.

سأبتسم من الآن، قطعت الطريق إلى منزلي وأنا على

وجهي ابتسامة عريضة جعلتني مصدر سخرية من المارة في الطريق لكن لا يهم. فأنا قررت الابتسامة رغم كل ما يحدث.

وصلت أخيرًا إلى منزلي المتواضع لم أجد زوجتي ولا طفلتي، أشعلت الحطب لتدفئة المكان حتى اختفت رائحة الرطوبة قليلاً، الدفء جعل جسدي يسترخي حتى دخلت في نعاس عميق، لم أشعر بساعات النوم إلا وضوء الشمس يقفز فى وجهي يوقظني صباحًا ابتسمت فلابد أن أبتسم كما قررت

ناديت على زوجتي لم أجدها هي وطفلتي أيضًا، والفراش كما هو، اندهشت هل هما لم يعودا أصلا إلى المنزل البارحة؟.

فهذه أول مرة تحدث أن زوجتي لا تبيت في المنزل، القلق بدأ يسيطر علي، أين ذهب الاثنان وهل عاودها التعب مجددًا وأين أبحث عنهما ؟

مر يوم كامل وأنا حبيس الثرثرة والقلق لا أعرف أين أبحث عنهما لم أجد غير الانتظار.. جاء مساء يوم جديد وأنا أقف مطلاً من شرفتي الخشبية على الشارع لعلهم يأتون، أخيرًا سمعت طرقات على الباب أسرعت لفتح الباب وجدت أحد جيرانى يلهث وأنفاسه تسبق حروفه المنطلقة من فمه تعالى

بسرعة إلى المستشفى معي طفلتك تعرضت لحادث، وهي في المستشفى الآن. الخبر هبط على كالصاعقة، ابنتى.. ابنتى ماذا حدث لها ؟

ارتديت معطفي القديم وتوجهت مسرعًا إلى المستشفى، وضعت يدي في جيبي لم أجد نقودًا فكل ما كان معي في هذا اليوم ابتسامة لم تكتمل! طلبت من جاري أن يقرضني ثمن المواصلات؛ فوافق بلا تردد رغم حالته البائسة مثلي فهو جاري في الطابق الثاني فنحن قطعًا سنكون شركاء في البؤس الإنساني فملامح الشوارع تعطي انطباعًا عن سكانها البؤساء مهما اختلفت زرقة السماء التي تستظلهما، قطعت السيارة بي الطريق كمسافة السماء والأرض حتى أفقت على صوت السائق: المستشفى التي تريدها ونظر إلي نزلت من السيارة ولم أعثر على أقدامي كأني تركتها في السيارة

دخلت مهرولا إلى بهو المستشفى قسم الطوارئ أسأل عن طفلة محتجزة فى قسم الحوادث حتى أشارت لي ممرضة إلى حجرة آخر ممر القسم

دخلت أبحث عن وجه طفلتي بين الوجوه الكثيرة الملقاة

على الأسرة البيضاء لا حول لهم ولاقوة، هاهي في آخر سرير بالحجرة وزوجتي تبكي بكاءً شديدًا بصوت مرتفع وطفلتي نائمة وكل جسدها ملفوف باللون الأبيض وكل وجهها كدمات زرقاء، لم أتمالك نفسي من البكاء خارت قواي فجلست أبكي على الأرض من قسوة المنظر، دخل الطبيب ناحيتها وأخذ يقيس النبض لها وقال لي اطمئن ستحتاج إلى عملية خلال ٢٤ساعة، ستنقذ ذراعها من البتر بمجرد أن سمعت زوجتي كلمة بتر، انهارت وأخذت تصرخ وأخذت تقبل يد الطبيب

أرجوك أن تنقذوها، فقال لها الطبيب العملية مكلفة ولابد أن تجدوا طريقة لتوفير التكلفة حتى نسارع بعمل العملية وانصرف، انصرف وتركنا في حيرة مع الأقدار في مواجهة شرسة معها دائمًا، خطر في بالى أن أغادر سريعًا المستشفى إلى بيت السيد تموز فأنا لم أعرف أحدًا غيره قادر على مساعدتي.

اندهش أني عدت بعد ساعات في غير وقت عملي، وقال لي بوجهه المتجهم المعتاد لماذا جئت مرة ثانية؟ قلت له أريد أن تسدي لي معروفًا لن أنساه أبدًا فرد ساخرا أي معروف بيننا؟

قلت له بدون خوف أريد مبلغًا من المال فابنتي الصغيرة

تحتاج لعملية تنقذ ذراعها من البتر وأعدك أني سأعمل عندك طوال حياتي حتى أسدد هذا الدين نظر السيد تموز إلى نظرات احتقار وقال متهكمًا: ولماذا أمثالكم يحتاجون لذراعهم ؟

تمعنت فى جملته بشدة وقلت له عندك حق يا سيد تموز ماذا نفعل بأيدينا ويد أمثالك لا تعطي!

فخلع حذاءه وانهال على رأسي بالضرب وطردني وأغلق الباب الوحيد الذي كان بوسعي طرقه وتوهمت أنه سيفتح لي!

قابلتنى خادمة السيد تموز خارج بوابة المنزل، لم أرها بوضوح من دموعي المحبوسة داخل عيني، وسألتنى ماذا جاء بك في مواعيد غير عملك ؟.

الرد متعلثم على لساني قلت لا شيء، ألحّت على لتعرف السبب طريقتها الحانية جعلتني أنفجر من البكاء أمامها وأن أحكي لها ما حدث لصغيرتي

تأثرت كثيرًا وظهر عليها علامات الحزن وقالت لي ماذا ستفعل الآن ؟

لم أعرف الإجابة، فدائمًا لا أعرف الإجابات التي تفرضها الأقدار التعيسة عليّ، وانطلقت في الشارع أمر بالمحلات

والشوارع الواسعة والبضاعة الملقاة على الأرصفة. ووجوه الناس المختلفة.

أنظرإلى الوجوه داخل السيارات الفارهة، وأنظر إلى الوجوه التي تركب عربات تجرها الأحصنة، ووجوه آخرين يشحذون بين الطرقات، والفجوة تتسعبين وجوه هؤلاء وهؤلاء حتى قاربت أن أصل إلى منزلي، لمحت عربة اللعب، تذكرت طفلتي

وأمنية كل ليلة أن اشتري لها لعبة ترقرقت الدموع في عيني فشوششت الرؤية أمامي إلى منزلي، دخلت المنزل

أحمل خيبات العالم على ظهري سألت نفسي كيف كنت سأبتسم وسط هذا الضجيج الكبير من الخذلان ؟

بحثت في المنزل عن شيء يباع، لم أجد شيئًا يذكر له ثمن هنا غير أدراج تحتوي على شهادات ميلاد!

فكيف كان لنا شهادات ميلاد ونحن لم نولد بعد ؟...

مرت شهور، وصغيرتي تجلس أمامي بذراعها المبتور، كلما نظرت إليها تذكرت جملة السيد تموز لماذا تحتاجون لأذرعكم؟ نعم لماذا، وقد شح العطاء توغر صدري؛ منه

فقررت الانتقام منه فذهبت في اليوم التالي إلى منزله وطلبت مقابلته، لكنه رفض مقابلتي توسلت إلى خادمته أن تدخلني إلى الداخل، فدخلت ناحيته وانقضضت عليه وقمت بخنقه، حتى أفلت مني بصعوبة فتناولت حذاءه وانهلت على رأسه بالضربوقمت بسرقة حذائه، ولاذت قدماي بالفرار، لكن تمكنت الشرطة من القبض علي. وأنا في الشارع المقابل لمنزله وقدمت للمحاكمة، تم الحكم علي بالسجن عشر سنوات لسرقة حذاء السيد المبجل تموز، لم يكن معي مال لتتقدم زوجتي بالطعن في الحكم وتخفيف العقوبة فكل ما تركته ورائي في تلك الليلة رغيفين وقطعة يابسة من الجبن القديم وزوجة لا حول لها ولا قوة وطفلة بذراع مبتور، ومسكن ربما سيطردون منه لاحقًا إلى العالم الرحب القابض على ضلوعنا، كنت داخل السجن يساورنى قلق شديد على مصير عائلتي، عرفت من زوجتي أثناء زيارتها لي أن السيد تموز جاء لمنزلي عندما عرف بخبر سجني. فلماذا أتى هذا الشخص الأحمق لزيارة عائلتي ؟

هل إحساس بالذنب تجاهي ؟ لا أعتقد أن هؤلاء يرهقون ضمائرهم بأمثالنا !

سؤال يضاف إلى زمرة التساؤلات التي أطرحها عل نفسي منذ أن دخلت هنا ولكنها دائما تنتهي بعلامات استفهام ؟

أزحت رأسي للوراء لتستقر الأسئلة الحائرة وتهدأ داخل جمجمتي، حتى خادمة السيد تموز كانت متحفظة في الحديث معي في المرة الوحيدة التي زارتني في السجن، لكني شعرت أن لديها الكثير من الأجوبة داخل نظرات عينيها.

لم أشعر برأسي إلا وهي تصطدم بجدار حائط الحجرة شعرت بدوار شديد كأن سقف الحجرة يسقط عليّ، وتناثرت متعلقاتى وتبعثرت على الأرض صوت عال يأتى من خارج الزنزانة يقول زلزال.. زلزال حتى استقرت رأسي من الدوران يبدو أنه زلزال قوي، فدائمًا الأرض تثور بلغتها وماعلينا سوى فهم ماتقوله جيدًا شعرت بحر شديد رغم أننا في أشهر الشتاء!

اندهشت هل الطقس يتغير هكذا في أقل من دقائق؟

لم أجد ما أسأله هل هذا إحساس الحر الشديد الذي أشعر به هل هو حقيقي أم جسدي أصابته حمى؟ بدأت أخلع ملابسي الثقيلة التي أرتديها حتى لا أصاب بالاختناق، راودتني من جديد صورة عائلتي، تمر الأيام بي هنا ولا أعرف كم

مر منها ولا كم تبقى؟ ربما من باب الإشفاق علينا لا يضعون ساعات حائط داخل الزنزانة؛ لأنهم متأكدون أننا لن نلحق أبدًا بعقاربها هي فقط محاولات فاشلة للالحاق، سلمني حارس السجن صباحًا رسالة وقال لي إنها من زوجتك فهذه أول مرة ترسل لي رسالة! فتحت الرسالة متلهفًا على قراءتها

زوجي الحبيب رسلان: سامحني أني لم أتمكن من زيارتك في الشهور الماضية لقد تعرضت المدينة لزلزال قوي فصل مدينتنا عن بعضها فأنا صرت أبعد عنك بمسافة قارة؛ لذلك أصبح بيني وبينك سفر طويل وجبال وأنهار فاصلة وأنا غير قادرة على السفر بسبب الحمل ولا أملك مالاً كي أسافر إليك .. أتمنى أن تكون بخير

وسيلتنا الوحيدة الآن هى الرسائل؛ فحاول الرد على رسالتي في أقرب وقت الإمضاء: زوجتك

قرأت الرسالة أكثر من مرةوحزنت أنالمناخ أيضًا أعلن ثورته على البشر ولكنه أيضًا أشد قسوة على الفقراء الذين لا يملكون غير منزل من الطين وحلمًا من قش.

بعد ساعات فتح باب الزنزانة وقذف الحارس في وجهي بملابس وقال الملابس الصيفية يا سجين

تأكدت أني ما شعرت به ليس حمى أصابت جسدي بل إنه طقس الصيف .

سألته بغرابة: نحن في فصل الشتاء على ما أظن كيف دخل فصل الصيف هكذا فجأة ؟

أجابنى بتحفظ:

الزلزال أحدث تغيرات شديدة نقل مكان السجن إلى منطقة يجتاحها فصل الصيف الآن، وماعليك غير تنفيذ الأوامر ولبس الملابس وكف عن الأسئلة يا رسلان .

أخذت الملابس ولبستها وصرت أنعم بجو الصيف الذي لا أعرف معالم عنه غير أنه فصل نخفف فيه الملابس !

يدى تلح علي بشوق أن أكتب ردًا على رسالة زوجتي، أمسكت القلم

زوجتي الحبيبة: اشتد قلقي عليك عندما انقطعت زيارتك لي ..لا أعرف أين أنت وطفلتي الآن؟ وأي قارة استقر بها منزلنا المهترئ

لم يفعل الزلزال ياحبيبتي بنا فعلة شنعاء كما تصورت؛

فكلنا مجرد أسماء حتى إن اختلفت أسماء القارات، الأهم أن من يرحل يكتب برقية وهو مبتسم يقول فيها إلى اللقاء لم أكن سعيدًا مهما اختلفت القارات !

..قبلاتى الحارة إلى صغيرتي، وسلمت الرسالة للحارس..

يمر الوقت هنا كئيبًا لم أجد ما أفعله، ربما كتابة الرسائل سأجد متنفسا فيها للهروب من كآبة الوقت

امتد بصرى إلى النافذة. اقتربت منها ووجهى إلى أعلى وسألت نفسي ماذا يوجد خلف النافذة ؟ سارعت بالإجابة على نفسي يوجد الرب

ولكن تردد صدى صوت سؤال آخر وهل الرب يراني ؟

لم أنتظر الإجابة

الأهم أني مازالت أراه

خرج كل المساجين في اليوم التالي إلى حديقة السجن الساعة المحددة لنا لنرى الشمس كل فترة مازلت لم أألف الوجوه هنا وجوه كثيرة حولي لكن لا من صديق مقرب لي حتى الآن هنا، فكلهم غرباء جلست على أريكة خشبية تحت

شجرة تملأ المكان وشرد ذهني في العمر الضائع المسروق الذي سأقضيه هنا وكم ستعاني عائلتي وحدها، أغمضت عيني من مشقة الشرود شعرت بالأريكة تهتز نظرت جانبي وجدت سجينًا جالسًا بجانبي يهز بأرجله وأنا شارد ولم أشعر به

خذ يتفحصني بتركيز لكني لم أكترث لنظراته ووجهت نظري إلى جهة أخرى لكنه قام واقفًا فجأة ومد يده كيف حالك يا رسلان ؟

اندهشت أنه يعرف اسمي ..مددت يدي للسلام عليه .. وقلت له أنت تعرفني ؟

أجاب نعم أعرفك ولكن ربما أنت لاتعرفني

أنا طباخ السيد تموز وكنت أشاهدك كثيرًا لأني مقيم بمنزل السيد تموز بمجرد أن نطق اسم السيد تموز تزاحمت كل المشاهد داخل رأسي، وتغيرت ملامحي وقلت له أهلاً بك

جلس مرة أخرى بجانبي على المقعد وذكر لى ذكريات في منزل السيد تموز أنا نفسي لم أتذكرها مضى الوقت معه في سرد الذكريات في منزل السيد تموز وانقضت فترة التنزه فى حديقة

السجن وذهب كل منا إلى زنزانته لكني شعرت بالراحة أن طباخ السيد تموزهنا، وربما أجد عنده بعض الإجابات الشافية لتساؤلاتي ولو قليلاً منها!

انتظرت يوم الخروج إلى الحديقة على جمر فكل ما يحدث حولي مثل الألغاز لماذا ذهب السيد تموز إلى منزلي وماذا كانت تخبئ خادمة السيد تموز وراء سكوتها عند زيارتها لي وترددت أن تقوله ؟

خرجت إلى الحديقة أبحث عن طباخ السيد تموز فى كل مكان أخيرًا وجدته يجلس تحت شجرة

أسرعت ناحيته وسلمت عليه وجلست بجانبه ولكني أردت التروي في الأسئلة المتلاحقة التي ستنهال عليه كالمطر ووسط ثرثرة الأسئلة التي تدور داخل رأسي نسيت أن أسأله ماهي التهمة التي أحضرته هنا ؟

لكنه كان ذكيًا فقال لى تهمته قبل أن أنطق بالسؤال:

أنا كنت متهمًا بقتل السيد تموز وأني وضعت له السم في الطعام وكل الشهود بمنزل السيد تموز شهدوا ضدي في القضية لأنه قام بتهديدهم أن يطردهم من عملهم عنده .

لكني فى حيرة أن أصدق هل فعلا هو ارتكب هذه الجريمة أم بريء منها لكن على ما أعتقد الكل هنا يقول أنا بريء ولكني تفاجأت بأنه يقول نعم أنا وضعت له السم في الطعام، لولا أن مساعدي وشى بي عنده !

فقلت له ماذا فعل السيد تموز يستحق أن تقتله بالسم ؟

أجاب بأنه اعتدى على زوجتي بعد ما أقنعني أن يعطيني حجرة صغيرة في المنزل وتأتي زوجتي لتسكن معي، كنت أظن أن عرضه من باب الشفقة ولكنه كان من باب شهوته ورغبته التي لا تشبع، نزل حديثه كالصاعقة على رأسي. ربما عرفت أخيرًا سبب زيارته لزوجتي، صمت وطال صمتي أخذ يهز ذراعي مابك يا رسلان ؟

لماذا تصمت وتحملق بي كهذا ؟

. قلت له لاشيء، كنت أظن أن ما سأجده عنده سيطمئننى ولكن وجدت ما يقلقني أكثر على مصير زوجتي وعرفت أيضًا أن خادمة السيد تموز تعرف كل شيء ولكنها لم تستطع الإفصاح لي عندما جاءت لزيارتي خوفًا عليّ من الصدمة رجعت إلى زنزانتي وحديث طباخ السيد تموز لم يفارق أذني، الحيرة كانت أشد عما قبل...

هل ضعفت زوجتي أمام السيد تموز ؟

هل نال منها ما أراد ؟

وهل هي خائنة ؟

النعاس فقط هو من أسكت هذه الثرثرة داخل عقلي، ساعات وفتح الحارس الباب وألقى سجينًا آخر معي نظرت له وجدته طباخ السيد تموز يالها من صدفة تقذفها الأقدار لي دون عناء رحبت بوجوده معي في الزنزانة فكلنا هنا ضحايا السيد تموزلاحظ طباخ السيد تموز عليّ الحزن وقال لي لا تفكر فيها هذه الخائنة اشتدت حرارة جسدى وسألته: عمن تتحدث ؟

أجاب زوجتك يا رسلان إنها خانتك مع السيد رسلان فمال السيد رسلان أقوى من الحب في هذا العالم ياسيدي. وأمام المال تفنى المبادئ يا رسلان

لم أقو على احتمال كلامه الأقوى من الرصاص، ولكني طلبت منه دليلاً على اتهامه لزوجتي، فقال لي إنها أكيد انقطعت عن زيارتك هنا قلت نعم لكن هي انقطعت لأسباب خارجة عن إرادتها .

.ضحك طباخ السيد تموز بسخرية قائلاً أنت تصدق هذه المبررات الواهية يا صديقي، فهي هناك تنعم بالمنزل الفخم والفراش الناعم والطعام الشهي، فلماذا تأتي هنا لترى وجهك المتسخ الشاحب!

حاولت جاهدًا تصديق شكوكه ولكني لم أستطع فزوجتي تحبني ولا يمكن أن تخونني

ذهبت بعيدًا عن طباخ السيد تموز وطلبت منه أن يكف عن الحديث معي فأنا متعب

انزويت فى آخر الحجرة لكن الثرثرة مازلت تعلو ولكنها حائرة بين عقلي الذي يصدق وقلبي الذي ينفي، مرّ يوم ونادى حارس السجن عليّ، لك زيارة يا رسلان اندهشت من سيكون الزائر تمنيت داخلي أن تكون زوجتي لأرى بنفسيما حل بها حتى أصدق كلام طباخ السيد تموز، مشيت برفقة الحارس إلى مكان انتظار الزيارات لنزلاء السجن وجدت أمامي السيدة (خادمة منزل السيد تموز) شعرت بخيبة أمل ظاهرة على وجهي عندما بادرت بالسلام عليّ جلست صامتة بجانبي

وسألتنى كيف حالك يا رسلان أنا جئت للاطمئنان عليك

رغم المسافات الكبيرة التي أحد ثتها تصدعات الزلزال وجعلتنا في مدن مختلفة شكرتها على زيارتها لكن داخلي سؤال ترددت أن أسأله لها، ولكن استجمعت شجاعتي وسألتها هل ترى زوجتي ؟

ظهر عليها علامات اضطراب وأجابت برد مختصر: لم أرها يا رسلان هذا الرد جعلني أشك في صدق الإجابة فما بدا عليها غير ذلك !

انقضى وقت الزيارة وعدت إلى الزنزانة والحزن يرتسم على وجهي ولم أحتمل فضول طباخ السيد تموز عندما سألني من زارك يا رسلان ؟. قلت له زائر لا تعرفه. وصلني الرد على رسالتي الأولى لزوجتي فتحتها سريعًا لأعرف ماذا كتبت فيها

زوجى الحبيب رسلان:

رغم المسافات والجبال والأنهار التي صارت تفصلنا عن بعضنا لكن لم يستطع جدار أو حائط أن يبعدني عنك فأنت معي فى كل وقت أراك في وجه طفلتي المتسخ وعيون مولودنا الجديد فمنذ أيام صرنا عائلة تتكون من أربعة أفراد بقدوم مولودنا الجديد لقد وضعت مولودًا ذكرًا كم هو جميل مثلك يا رسلان

لا تقلق علينا فنحن دائما لا نحصد غير القلق والخوف من القادم فهذا قدرنا كم اشتقت إليك يا رسلان صغيرتك تهديك السلام والقبلات اعتن بنفسك سأزورك قريبا عندما أستطيع السفر بطفلي الصغير .

. إمضاء: زوجتك

أنهيت كتابة رسالتي إلى زوجي رسلان لم أعرف هل كتبت الحقيقة أم نصف الحقيقة في الرسالة ؟

وكيف كتبتها بكل هذا الصدق والواقع غير ذلك ؟

فكيف كتبت أنى مازلت أراه في وجه طفلتي المتسخ ووجه صغيرتي أصبح نظيفًا ؟.

فهل كان الشبه بينهم قديما ؟

تذكرت عندما ذهبت إلى السيد تموز أول مرة أطلب مساعدته حتى يخرج زوجي من السجن وطردني وركل طفلتي الصغيرة برجله كنت أنظر إلى صورته فى شاشات التلفاز بالشوارع التي أمرّ بها، وجميع الجالسين على المقهى يصفقون له على بره بالفقراء !

فنظرت إلى ملابسي القديمة وسألت نفسي هل كل ما نحن عليه ولسنا فقراء ؟

لكنى وجدت شيئًا لا يجعلنا كذلك في نظره؛ فأنا أمتلك وجهًا جميلاً وشرفًا ناصعًا فربما لدينا شيء نعطيه لهم؛ لذلك لا نكون فقراء في نظرهم

وصلت إلى المنزل وجدت صغيرتي تطلب طعامًا وتسألنى أين العشاء يا أمي ؟

وجدت كل الأواني فارغة تذكرت طعام الكلاب الذي تناولته صغيرتي بالخطأ كم الحياة قاسية إلى حد الموت أخرجت جزرة ذابلة قديمة أعطيتها لصغيرتي لتسد جوعها خطفتها مني ووضعتها على فمها سريعًا ونامت على صدري نظرت حولي في المنزل لم أجد سوى سرير قديم قررت بيعه حتى أشتري طعام الغد مرت شهور وحالنا يزداد سوءًا على سوء حتى جاءتني خادمة السيد تموز وأحضرت معها بعض الطعامطلبت منها أن تطلب من السيد تموز مساعدتي لعلها تقنعه وعدتني أنها ستحدثه في الأمر لم يمر سوى أيام ووجدت يدًا تطرق باب منزليفتحت وجدته السيد تموز حاملاً

كيسًا به فاكهة، طلب مني الدخول للتحدث معي هيبته جعلتني لا أتذكر ركلته لصغيرتي، أدخلته قمت بتنظيف الغبار من على الكرسي حتى يتمكن من الجلوس عليه حتى لا تتسخ ملابسه الفاخرةاقتربت صغيرتي منه ومدت يدها إلى كيس الفاكهة وأخرجت ثمرة موز وأخذت تقفز من الفرحة أمي هذه الفاكهة تشبه التي أراها عند البائع في السوق وضع السيد تموز يده على كتفها ستأكلين كل يوم مثلها ياصغيرة ونظر إلي يتفحص جسدي وصدري، جسلت بعيدًا عنه حتى لا يطيل النظر ثانيًا إلي وطلب من صغيرتى أن تلعب بعيدًا

وتأكل الفاكهة، انشغلت صغيرتي بأكل الموز، اقترب السيد تموز مني وأخذ بتحسس جسدي أبعدت يده بقوة وقلت له ماذا تريد منى؟

أجابنى بكل وقاحة أنت ما تريدى وليس أنا! شعرت من رده بوقاحته المعهودة نظرت إلى إبنتي وجدتها التهمت كل أصابع الموز وجاءت تقول لى في أذني أمي ضعي يديك على بطني إنها منتفخة جدًا فقلت لها بحسرة إنها ليست منتفخة يا صغيرتي إنه الشبع مد يده السيد تموز في الكيس وأخرج لعبة جميلة أعطاها لها.

أخذت تقفز من الفرحة كالعصافير هذه اللعبة التي كنت أطلبها من أبي من فترة طويلة ولم يحضرها حتى الآن لي ثم أخرج نقودًا ووضعها في يدي وغادر ونظر إلي كأنه يعطيني مهلة لزيارة مرتقبة امتدت يدي إلى كيس الفاكهة أخرجت واحدة وأكلتها لكن قبل أن أبتلعها تذكرت رسلان فتقيأتها من فمي على الأرض لكن ظل طعمها عالقا على لساني، شعرت بضيق في صدري هرولت إلى الشوارع الواسعة المزدحمة لعل الحيرة تدفن حية في بطن الزحام والوجوه لم أجد طريقا ممهدا فى الطرقات كل الطرق بها منحنيات غير آمنة للسير فيها لم أجد غير الرجوع إلى المنزل دخلت بيتى وجدت طفلتى تصرخ وصوت صاحب المنزل داخل المنزل

يحاول إخراجها من المنزل بالقوة تدخلت لآخر لحظة لإنقاذها من يده لكنه صمم على طردنا توسلت إليه أن يعطيني مهلة صغيرة لأدبر المال وافق بشرط أسبوع فقط وبعدها سيتم طردنا من المنزل مرت ثلاثة أيام من المهلة ولم أستطع تدبير المال ولم يتبق شيء من أثاث المنزل سوى كرسي خشبي قديم وسرير قديم جاء اليوم السابع وتيقنت أن طردنا قادم لا محالة طرقة خفيفة على البابلا بد أنه مالك المنزل قمت بفتح

الباب وخيبة الأمل تسعى بين قدماي لكني وجدته السيد تموز لم أتوقع أنه سيزورنا مرة أخرى !

لكنه كان عنده بقين أني لن أصمد طويلاً؛ فالجوع لا يصمد أمام الخبز اقترب مني وبدأ يتحسس جسدي لم أقاومه هذه المرة بل جعلت يده تتوق خصري قبلني بحرارة

أشعل الرغبة المدفونة في ثلج الأقدار أخذته من يده إلى السرير القديم المملوء بالتراب والأوساخ، جعلته يتمدد عليه يشم رائحة الغبار حتى لو لمرة واحدة حتى تفسد عليه المتعة لكنه لم يكترث للتراب والأوساخ العالقة بالفراش كل ما أكترث له جسدي الجميل وصفقته الرابحة دائمًا المال مقابل الشرف عند هؤلاء

هب قائما بعد إتمام الصفقة أخذ ينفض التراب عن ملابسه الثمينة، لم يعرف أن الأوساخ الحقيقية لم تكن الغبار العالق بأرجلنا أو على أثاث الفقراء سمعت صوت هاتفه يرن نظر إلى الشاشة فقام بالرد سريعًا تغيرت ملامح وجه أثناء المكالمة ففتح باب المنزل وخرج بسرعة كأن أحدًا أبلغه خبرًا غير سار

أعدت ترتيب السرير وجدته ترك مبلغًا من المال بجانب الوسادة، مددت يدى وهى ترتعش إلى النقود قربتها إلى أنفي

نعم إنها هى رائحة النقود التي تشتري كل شيء

ذهبت بسرعة إلى منزل المالك لأعطيه إيجار المنزل قبل أن تنتهي المهلة

مررت على المقهى لمحت وجهًا يشبه السيد تموز ولكن عندما اقتربت من الشاشة عرفته يقينا أنه هو بنفس ملابسه التي كان بها عندي منذ قليل والكل على المقهى

يتحدث عن خبر موت خالته من ساعات وينعيها بكل الأسى والحزن ووجهه متأثراً

لابد أنه الخبر الذي كان سبب تغير وجهه في المكالمة عندي، الأدهى أن يكون هو من صلّى عليها ولم يغتسل !

لم أطق جسدي بعدما سكب هذا الرجل ماءه فيّ، أشعر أني تبرأت منه أشم رائحة رسلان في كل مكان ماعدا الفراش لم أجرؤ أن تبقى عليه ذكرى منه أخذت أجلد في جسدى بالسوط كل ليلة عندما أغمض عيني أنظر إلى بطن طفلتي أجدها منتفخة أطمئن أنها سعيدة أخذ يتردد علي السيد تموز فترة طويلة فى كل مرة كان يأخذ ما يريد وأنا آخذ ما أريد ولكن شتان مابين الاحتياجين !

فأنا آخذ لسد رمق البطون وهو يأخذ لسد رمق الشهوة التي لا تشبع، ولكن المؤكد أن الاثنين لن يشبعا، كانت تترد عليّ خادمة السيد تموز لتطمئن على أحوالنا تجدها أفضل حالاً فما زلنا على قيد الحياة، اختفى فجأة السيد تموز وانقطعت أخباره لعله وجد فريسة أخرى جائعة تراكمت على الديون من جديد وإيجار المنزل، قررت الذهاب إلى منزله لكنه كان مشغولاً ولم يقابلني فقط أعطى الخادمة عنوان صديق له سيقوم بمساعدتي، لم أتردد في الذهاب إلى صديقه فذهبت في نفس اليوم ودخلت على مكتبه وقلت له أنا من طرف السيد تموز لكنه لم يصدق فاتصل بالسيد تموز ليتأكد بنفسه أخذ ينظر إلي بإشمئزاز وقال سأكتب اسمك فى كشف المحتاجين إلى مسكن لكن لابد من لجنة لزيارتك حتى تقيم حالتك الاجتماعية، أعطيت لهم العنوان بعد أيام قليلة جاء هذا الموظف إلى منزلي استقبلته وداخلي أمل كبير في مسكن آدمي يشبه هويتنا في البطاقة الشخصية أخذ يسألني بعض الأسئلة، وبدأ يتجول داخل حجرات المنزل الضيقة ثم جلس على السرير القديم، وطلب مني أن أجلس معه شعرت بيده تتسلل خلف ظهري لكنى لم أستطع أن أنهره تركته يتحسس شعري نظرت إلى

عينيه وجدت فيهما رغبة تموز آخر، أطفأت النور كى لا يرى نظرات الاحتقارله في نظراتيخالطت ملابسه غبار السرير، علقت كل الأتربة بملابسه وبعد أن انتهى بدأ يتأفف من رائحة التراب وقال كم أنت جميلة رغم سوء المكان سأعدك بمسكن نظيف ولكن بعد زيارة قادمة لاستكمال الأوراق وغادر بهدوء الثعالب وترك هو الآخر توقيعه على السرير القديم الباليوبصمة موجعة على جسدي زيارات خادمة السيد تموز لاتنقطع بين الحين والآخرلنا وسألتني هل حصلت على المسكن الجديد؟

فتلفتّ حولي وأجبت عليها أترى مسكن جديد هنا ؟

وأبلغتنى أنها ستزور رسلان ولن تبلغه مايحدث حتى لا يقلق بشأننا قمت بهز رأسي نعم لا تقلقيه علينا فنحن في أحسن حال!

شعرت بعدها بشكوى تشبه أعراض الحمل وجدت أنى لابد من زيارة رسلان وإخباره بخبر الحمل حتى لا يتفاجأ بالمولود لملمت باقى حبات الطماطم وشرائح الباذنجان ووضعتهم فى كيس صغير لأذهب لزيارته غدًا فى السجن لم أستطع النظر فى عينيه بعد ما حدث أثناء زيارته وجدته أكتر

بؤسًا وحزنًا عن ذي قبل رغم ذلك أبلغته خبر الحمل وقع الخبر عليه كوقع السكين على رقبة الميت ينزف دمًا ولا يتألم لكنه كان يطيل النظر بحزن على صغيرتنا بيدها المبتورة وهى تعانقه بيد واحدة مرت الزيارة سريعًا وعدت الى منزلي وجدت هذا الموظف ينتظرني أمام الباب ووجهه مبتسم ومعه أوراق كثيرة وطلب مني أن أكتب اسمي على الورق دخل معى المنزل وقّعت له على الورق وهو وقّع في مكانه المعتاد وقال لي مبتسما لقد حصلت أخيرًا على مسكن نظيف آدمي والفضل يعود للسيد تموز، ابتسمت ابتسامة ساخرة نعم هو كذلك آدمى !

لكن الحقيقة لم يبق شيء آدمي هنا غير ذكرى رسلان فقط وسط ضجيج الأحداث الموجعة التي تضربنا بالسوط على ظهورنا ونحن عرايا أمام مرآة الواقع الأليم اشتقت لرسلان اشتقت أن أكتب له كلمة حب صادقة في ورقة لايجب تصديقها فالحب لم يبق على أرض الواقع كل ماتبقى منه صورة منسوخة مشوّهة أو كلمات باتت يتيمة بين الورق في صفحات كتيبات مجهولة مر العام الأول وطفلتي الصغيرة تلح على كل يوم تريد زيارة رسلان لم أجد عذرًا لتقديمه بعد نفاد كل الأعذار

لصغيرتى فقررت أخيرًا زيارته ذهبت مبكرًا إلى السجن كنت أول زائرة فى المكان انتظرت رسلان طويلاً حتى ظهر وهو يصطحبه الحارس من يده إلى مكان الزيارة كنت أتوق إلى تقبيله ولكن لم أستطع جلسنا في مكان متباعد قليلاً عن بعض

قام بتقبيل صغيرته تقبيلاً حارًا كنت أحمل ابني نظر إليه من بعيد فقربته له حتى نظر إليه من بعيد فقربته له حتى يراه لكنه نظر نظرة عميقة ثم ابتعد فجأة عنه لم نتبادل الحديث هذه المرة معًا كالمرات السابقة، رأيته يتحسس وجه طفلتى وقال إن وجهها أصبح نظيفًا ثم نظر إلى أرجلها وجدها ترتدى حذاءً جديدًا، ولعبة جديدة تحتضنها في صدرها فقال معلقا إنها اللعبة التى لم أستطع شراءها لها من سنوات أليس كذلك؟ أجبت نعم

لم أقو على تكملة وقت الزيارة فالمكان رائحته لا تطاق صافحته وطلبت منه أن يعتني بنفسه جيدًا وسنراه قريبًا وطلبت الانصراف وأعطيت له كيسًا في يده فنظر لي نظرات لم أعرف مغزاها فنادى على الحارس قبل أن أنصرف وطلب منه أن يأخذه إلى زنزانته

.عدت إلى زنزانتي ونظرت إلى داخل الكيس وجدت به ثمرات تفاح بحثت داخل الكيس لعلي أجد ثمرة طماطم لم أجد أو شرائح باذنجان قديم لم أجد أيضًا وجدت فقط ثمرات تفاح وخبزًا من الدقيق الفاخر، أخذت أرطم رأسي فى الحائط كالمجنون كيف لم أصدق كلام طباخ السيد تموز ؟.

تردد صدى صوت عال يردد ورائي السيد تموز السيد تموز مرت على لحظة خاطفة من ملامح مولودى الصغير ذو الملامح المتشابهة معه إلى حد كبير فلم تعد طفلتي بوجه متسخ وأرجل حافية بدأت أصرخ وسط سكون الحجرة المظلمة ولا أحد مجيب !

أمسكت بالقلم لأكتب آخر رسالة لزوجتي الخائنة

كتبت فيها زوجتى التي لم تعد هى أعطيني فرصة أخيرة لأرسم بفرشاتي مقعدًا كالأرجوحة بين مدينتك ومدينتي لا تجالسيني، أنت فيها فقط دعِ الذكريات تتأرجح وحدها فتسقط متعبة ثم تلتهمها أفواه قبور مدينتي

إمضاء رسلان

رفعت رأسى أفلت القلم من يدى لقد بذلت مجهودًا

مضنيًا في تكملة هذه الرواية فلم يعد عندي ما أكتبه، ماعليّ سوى ختام الرواية والتوقيع باسمى فى نهاية الصفحة؛ فكتبت على ظهر الرواية الكاتب رسلان .

لم أسمع شخيرهذا السجين المريض لابد أنه بدأ يفيق، حسنًا إنه الوقت الملائم لتسليمه الرواية، جلست بجانبه أزف إليه خبر انتهاء الرواية بدأ بترنح من آثار المنوم لكنه كان سعيدًا جدًا عندما سمع الخبر وأخذ الرواية وبدأ يقرأها بسعادة

أطال الوقت في القراءة حتى ظننته أنه أخذ جرعة منوم أخرى فجأة بدأ يثور غاضبا ويرمي بالرواية على الأرض ويقول كالمجنون أين دوري أيها اللص لقد تبرأت مني في الرواية حتى التوقيع باسمك، ثم أمسك الرواية وأخذ يمزقها لم أحتمل مشاهدة روايتي تتمزق أمامي ويضيع حلم أن أصبح كاتبا مشهورًا أخذت منه ماتبقى من الرواية وصفعته على وجهه لكن بدأت علامات هيجان غريب لم أقدر السيطرة عليه، وجدت حقنة بين دوائه عرفتها أنها منوم قوي أفرغتها سريعًا وقمت بإعطائها له

بعد مقاومة خارت قوانا معًا التفتّ ورائي وجدت الحجرة

مليئة بالحراس والأطباء وهم يحاولون إبعادي عن هذا المعتوه بالقوة التقطت أنفاسي بعد معركة مع هذا المريض المعتوه جذبني حارس السجن بقوة ماهذا الذي تفعله يا مريض رسلان؟

أجبت وسط أنفاس تعلو وتهبطلم أفعل شيئا أيها الحارس فهذا المعتوه هو الذي فعل ومزّق الرواية نظر الحارس إليّ ثم نظر إلى الطبيب بجانبه أي مريض يا رسلان ؟

أشرت إلى سرير هذا المعتوه لكن لم أجده! قلت أين المريض الذي كان ينام هنا؟

سحبني الحارس من يدي لقد قمت بإعطاء حقنة منوم للطبيب أثناء مروره على حجرتك ولما تأخر عن الخروج بعض الأطباء دخلوا ليروا ما ذا حدث وجدناك فى معركة معه لتغطيه الحقنة !

ثم أخرج الطبيب حقنة صغيرة قام بإعطائها لي جعلتني في ثبات غريب أرى وأسمع ماحولي ولكن لا أتكلم نظرت إلى سقف الحجرة لعلي أجد إجابة شافية !

أفقت بعد مدة لا أعرفها هل هى أيام أم ساعات، لم أعد أحتمل مايحدث لي هنالأني سأفقد عقلي قريبًا إن كنت لم

أفقده بالفعل فقررت الهروب من السجن مهما كلفني الأمر

انتظرت حتى أتى الحارس لي بالطعام، ضربته على رأسه فوقع مغشيًا عليه على الأرض، فخلعت ملابسه وقمت بارتدائها بسرعة وخرجت وأغلقت الزنزانة بالسلاسل على الحارس

لم أعرف كيف أحدد طريق سيري للهروب، فالممرات كثيرة إلى الخارجفجأة استوقفني أحد الحراس آخر الممر ونظر لي نظرة أربكتني ثم قال ليأسرع بسرعة توجد حملة تفتيش على السجن اليوم، التقطت أنفاسي سريعًا وأسرعت في المشي لأجد منفذًا للخروج قبل أن يكتشفوا هروبي من الزنزانة. وجدت سلالم أمامي فقررت الصعود فورًا عليها ربما تكون مسلكًا آمنا للخروجسمعت صوت ضوضاء ورا ئي، لم أسمع منها سوى صفارات إنذار تملأ المكان فعرفت أنهم اكتشفوا هروبي.

أسرعت بخطوات مزدوجة على السلالم حتى وصلت آخر المبنى وجدته سطح السجن نظرت من أعلى وجدت السجن محاطًا بالحراس من كل مكان نظرت على يمين

السطح وجدت مبنى ضخم ملاصق لمبنى السجن

قفزت قفزة قوية؛ أسقطتني جالسًا على كرسي في حجرة كبيرة محاطة بالكاميرات حولي؛ أسمع صوتًا يقول لي: انظر إلى الكاميرا، سنبدأ البرنامجشعرت بتوتر وقلت أي برنامج لابد أن الشرطة عرفت بهروبي وسيحققون معيأمام التليفزيون لشفافية التحقيق، اقترب مني رجل يحمل كاميرا وقال لي أنا المخرج لقد تأخر مذيع البرنامج، ولابد أنهم أحضروك بديلاً عنه، تلعثم لساني على الرد وقلت بتأ تأة نعم أنا بديل المذيع فليس أمامي خيار آخر، نظرت إلى ملابسي وجدتها لا تصلح لتكون ملابس مذيع فطلبت من المخرج ملابس أخرى لكنه قال الوقت ضيق جدًا فموعد الحلقة الآن ولم يتبق غير ثوان، رجاءً ابدأ فجلست بغرورعلى الكرسي ونظرت إلى الكاميرا وبدأ البرنامج ولكني نسيت أن أسأل المخرج عن موضوع الحلقة، ماعلي سوى ارتجال موضوع للتحدث فيه لنيل رضا المخرج. حتى لا يطردني وتقبض عليّ الشرطة في الخارج نفخت صدري وجمعت كل شجاعتي وانطلق الحديث من فمي: طاب مساؤكم أيها المشاهدين أنتم بالطبع لا تعرفونني فأنا مذيع جديد في البرنامج ولا تندهشوا من ملابسي فأنا

أرتديها متعمدًا هذا اليوم تضامنًا مع يوم الحارس العالمي فهذا الرجل يبذل مجهودًا كبيرًا من أجل أن يكون اللصوص والخونة في مكانهم الطبيعي

لاينعم بالراحة في بيته؛ فمسئوليته أولا، فأنا أحييه من هذا البرنامج وهذا اليوم العظيم وأخذني الحماس فقمت واقفًا أصفق بصوتٍ عالٍ وأقول تحية إجلال وشكر له تحية إجلال وشكر له ..تعالى تصفيق الإعداد والمخرج معًا وقالوا:

أحسنت.. أحسنت

انطفأت أنوار الكاميرات

أثنى عليّ المخرج قائلا: أنت أفضل من مذيع البرنامج الحقيقى يا ...ولكن ما اسمك ؟

ترددت أن أقول اسمي الحقيقي؛ فقلت له أول اسم تبادر إلى ذهني، اسمي نبهانقال انتظر هنا حتى نحضر لك مبلغًا من المال كهدية لك فدخل مساعده وأخذه جانبًا وهمس له فى أذنه

شعرت بقلق؛ لعلهم اكتشفوا أمري!

رأيت وجه المخرج مبتسما فقلت لو كان بلغه أني مسجون

هارب ما الذي يضحكه هكذا!

فاقترب منى وقال ألف مبروك يا سيد نبهان؛ لقد لاقت الحلقة استحسانًا كبيرًا ونسبة مشاهدة عالية لما فيها من صدق وعفوية

لذلك سيتم تعينك مذيعًا رسميًا للبرنامج .

لا أعرف ماهذه الورطة التى وضعتني الأقدار فيها ولكن ربما ورطة مذيع أفضل من ورطة العودة إلى السجن؛ فوافقت ومضيت معهم عقدًا لمدة عام كامل ولكن بشرط توفير حجرة لي هنا بجانب الاستديو، وافق المخرج على شرطي كانت الفكرة مغرية للمخرج فبدأ فى إعداد حلقة عن الطبيب فلبست زي الأطباء وجلست منتفخ الصدر وبدأت الإطراء على دور الطبيب، ولكنى شعرت بحرج أنى لا أجيد أي كلمة إنجليزية، ولكن تداركت الأمر، وخرجت الحلقة كالسابقة فى نسبة المشاهدة.

بدأت القنوات تتهافت عليّ وكل قناة تقدم عرضًا مغريًا عن الأخريفأصبحت أمتلك مالاً بجانب الهدايا، أوشك عقد القناة على الانتهاء، اقترح المخرج أن نقدم حلقة عن

البلياتشو..أحضروا لي زي البلياتشو وقمت بارتدائه وجلست أمام الكاميرا لتبدأ الحلقة، أخذت أقهقه بصوتٍ عالٍ وأقول أنا البلياتشو الذي يضحك العالم، والعالم يضحك عليه أخدعكم بوجهي الحزين تحت الألوان المزركشة وأنا سعيد، فلدي كل مايجعلني سعيدًا وأنتم لا تدرون أن لدي سيركًا كبيرًا ومتفرجين كثر ، أبكيكم ولا أبكي أبكيكم وأنا أقفز على المسرح بملابسي الممزقة المليئة بالرقع ثم بعد أن ينتهي العرض أستقل سيارتي الفارهة وبجابني زجاجة النبيذ لأنسى وجوهكم وأنتم تبكون من الخدعة !

أخرج من العرض وجيبي ممتلئ بالنقود ثم اتجه إلى أكبر المطاعم لأتناول البيتزا على العشاء وأنتم تنامون جوعى لأنكم دفعتم كل مامعكمتذكرة لتشاهدوا عرض البلياتشو.. بكى المخرج من صدق الإلقاء فصفق بحرارة وحماس وقال يالها من حلقة رائعة هذه المرة، هذه الحلقة ستكون مميزة، تبقى حلقة واحدة وينتهي العقد مع المخرج، عرض عليّ المخرج أن تكون الحلقة الأخيرة عن الفقراء، فيوم الفقراء العالمي غدًا، وسيتم تجديد العقد معي بضعف المبلغ كنت سعيدًا أن هروبي جعلني من المشاهير، ولن يجرؤ أحد على القبض علي، تجهزت الكاميرات وسلط المخرج الكاميرا

على وجهي وقال: ابدأ يا سيد نبهان الحلقةظهرت في واجهة الشاشة وأنا أرتدى زي الفقراء وتطل من عيني نظرات الفقراء وتفوح من جسدي رائحة الفقر، لأول مرة لن أرتجل؛ فصوتي هذه المرة هو صوتي الحقيقي.. صوت رسلان البائس

فأنا الذي يسير على الأرض وتلتصق بي كل خطايا العالم، أفتح نافذتي الخشبية القديمة، لا أجد سوى الغراب ينعق على رأسي، ستهجر نافذتى العصافير لأني لا أمتلك حبوبًا لها، ورغم ذلك أجدها تغني على مقربة من شجرة أمام منزليسيأتي العيد، ويلعب كل الأطفال بالدمى وطفلتي تبكي تحت الجدار بذراع مبتور سيكتبون لأحفادي زورًا في مادة التاريخ أن البندقية لا تغتال الحمام !

سيزعق الزاعق أن ازرعوا وردًا في حديقته، والمدن خربة يغتالها الرصاص لن أغني في الأعياد وهناك على التل البعيد صوت آذان مكتوم، سأكتب قصيدة تحت حائط المبكى ولو أنّا كنا شرفاء قبل أن نسرق حذاء الأسياد وصرنا أكثر شرفًا عندما سرقونا الأسياد، لا تسألوا الحكام عن قوتنا بل اسألوا المصانع عنها، لم أتمالك نفسي فسقط من مقلتي سيل دموع، قرب المخرج الكاميرا جدًا على وجهي حتى تكبّر مشهد البكاء فلم أجد ما أختتم به الحلقة غير أن أزف خبرًا سارا

للفقراء أن ستصرف مكافأة كبيرة لكل الفقراء احتفالاً بيوم الفقراء العالمى.

فجأة انطفأت أنوار الكاميرات في وجهي وأظلم الاستديو وسمعت صوت المخرج يقوم بالسباب عليّ !

وقال بعصبية القناة ستقيلك حالاً؛ لأنك تقول أخبارًا غير حقيقية، وسيتم القبض عليك بتهمة انتحال صفة مذيع أبلغ المخرج الشرطة وقبضوا علي داخل الاستديو وتم محاكمتي بعشر سنوات أخرى لانتحال صفة فقير!

ضربت وجهي بيدي وأقسمت أني لم انتحل شخصية أحد، أنا فعلا فقير حتى تورم خدي من الضرب، شعرت أن أحد ضروسى سقط من شدة الضرب على وجهي صرخت مستغيثا النجدة.. النجدة

سأصاب بنزيف حاد النجدة.. النجدة ،أصابع تلامس كتفي تقول: اهدأ يا رسلانسنعطيك حقنة منوم أخرى بعد أن وجدناك تمشي وأنت نائم داخل الزنزانة

دققت النظر وجدته شخصًا من طاقم التمريض في السجن، مددت ذراعي لأخذ الحقنة وأستسلم للنوم العميق،

استيقظت فجأة على مغض حاد جعل حتى حقنة المنوم لا تقدر على انتزاع الألم داخل بطني، ظللت ألتوي بجسدي حتى يكف الألم بلا فائدة، صوت صراخي خرج خارج الزنزانة أسرع الطبيب ومعه الممرضة لإسعافي ولكن الألم كان أكبر من السيطرة عليه فنقلني الطبيب إلى مستشفى السجن وبعد يوم من الفحوصات والتحاليل تم تشخيص حالتي: التهاب حاد في المرارة، ولا بد من إجراء عملية فورًا، ولكن واحدًا من أطباء المستشفى كان يشك في نتائج الفحوصات وتم تحويل حالتي لقسم يستخدم تقنيات الذكاء الإصطناعي في مجال التشخيص

وبعد انتظار خرج الطبيب وقال جهاز الذكاء الاصطناعي شخّص حالة المريض رسلان: إنها حالة سرطان بالمخ ، انهرت عندما سمعت تشخيص حالتي أخيرًا سأموت ويتخلص العالم مني !

سمعت صوت ثرثرة وتشاورات تدور بجانب رأسي في الحجرة التي احتجزوني فيها، منهم مؤيد لعملية إزالة المرارة والبعض الآخر مؤيد لإزالة المخ، وأنا مجرد مستمع لا أكثر. فلا يهم الجزء الذي سيزال عندي فكل على حد سواء .

أغمضت عيني بعدما شعرت أن الألم في هدنة قليلة لكن أيقظتني الممرضة فورًا من فضلك سنقيس الضغط لأن الأطباء قرروا إجراء العملية الآن، كان لدي فضول أن أعرف ما هو نوع العملية التي استقروا عليها !

فقالت سنصدق تشخيص جهاز الذكاء الإصطناعي بالتأكيد

وسنجرى لك عملية استئصال للمخ، سعدت أخيرًا سيتم استئصال أهم جزء لدي يجلب لي الضوضاء والثرثرة، بعدها لن أفكر وأقلق على مصير عائلتي، لنيصيبنى الملل في السجن لأني لن أعرف عدد الأيام التي أقضيها، لن أفكر في المستقبل المجهول، لن يكون لي طموح في الحياة إني رجل منزوع المخ يالها من عملية جيدة! وابتسمت في وجه الممرضة مما جعلها تندهش لماذا تبتسم وأنت تعرف أنك مصاب بمرض خطير في المخ ؟

أجبتها: الشرح يطول أيتها الممرضة اللطيفة وغادرت لتقوم بتحضير غرفة العمليات مع الطبيب، واستمرت العملية ساعات طويلة فتحت عيني وجدت نفسي في غرفة كبيرة لا أعرف قراءة ما على اللافتة، دخل رجل وسيم إلي وأخذ

يحرك شفتيه وأنا ينتابنى الضحك لم هذا الوسيم الذي يرتدي الزي الأبيض يحرك فى شفتيه هكذا، ياله من أمر مضحك، ثم وضعتني الممرضة على كرسي متحرك متجهة إلى غرفة أخرى بها عدد من المرضى، وساعدتني في النهوض من الكرسي حتى استلقي على سريري بالحجرة، نظرت إلى وجوههم بالغرفة الكل يبتسمون نفس ابتسامتي العريضة، كأننا نتشارك في مشاهدة عرض مسرحي ساخر، لم أجد ما أفعله أنا وهؤلا ء غير الابتسامة و النوم والتبول والأكل

مرت شهور وتعافينا من آثار العملية جميعًا، ولكن لاحظ الطبيب علينا أنه لايوجد رد فعل عندنا لأي شيء يحدث حولنا وهذا خطأ فادح نتج عن العملية ولابد من إصلاحه، فقال الطبيب وهو واقف فى منتصف الحجرة سنقوم بزراعة شريحة إليكترونية مبرمجة تقوم بعمل المخ من جديد، ابتسمنا جميعًا وصفقنا تصفيقًا حادًا، لماذا ؟ لا نعرف !

ربما لأنه كان يحرك شفتيه بطريقة سريعة أكثر من اللازم، أدخلوا كل المرضيحجرة كبيرة استعدادًا لزرع الشرائح لنا، كنا تبتسم ابتسامة البلهاء

مضى وقت لا أعرفه، وضعونا في غرفة عرفت بعد قراءة اسمها بعدما استعدت وعيي بأنها غرفة الإفاقة، نظرت إلى المرضى حولي وجدتهم بدأوا يستعيدون الوعي مثلي، لكنهم لا يبتسمون كالعادة بعد فترة التعافي

بدأت حالتنا الذهنية تعود أفضل مما كانت قبل العملية، كنت أعرف الطبيب ومتى سيدخل، أعرف كل الأشياء عنه، هو لا يعرفها عن نفسه، قضينا وقتًا عصيبا الأيام السابقة وكل المرضى معي في الحجرة، اقترح محقق السجن أن نشارك في الحفلة السنوية التي تقيمها إدارة السجن سنويا ترفيها للسجناء المرضى نفسيًا بعد رحلة المعاناة، كان الطبيب ذكي صديقًا ودودًا مقربًا لنا منذ نجاح عملية زرع الشرائح لنا؛ فكان لا يفارقنا أبدًا، وسألنا ما الدور الذي ستقدمونه في المسرحية في الحفلة، لكننا كنا لا نعرف ماهو الدور المناسب لنا فصمتنا جميعًا لكنه ابتسم قائلاً: لاتقلقوا، لقد اخترت لكم دور عصابة كبيرة خطيرة تسرق البنوك وسأكتب لكم المسرحية بنفسي، وسيكون لكل واحد فيكم دور مناسب له

تبقى أيام قليلة على الحفلة، وكتب لنا الطبيب المسرحية بإتقان حتى ظننا أننا لصوص فعلاً، ياله من طبيب متواضع

بارع.

بدأ العرض، في الأمام يجلس محقق السجن مع الضيوف؛ مما شجعني على الدخول في الدور بحماس، والكل يرتدي زي اللصوص في المسرحية، نظرت إلى الطبيب وهو يجلس آخر الصفوف ويلوح لنا بيده: ماهذا الذي ترتدونه أيها البلهاء أنا لم أقل لكم في المسرحية تدخلون بملابس اللصوص ؟

سمعته ولكن لم أستطع فعل شيء؛ فالستارة رفعت والعرض بدأ ومحقق السجن سيعاقبنا على ذلك، تحركنا على المسرح كما كتب لنا الدور الطبيب ذكي، نزلنا تحت المسرح وجدنا خندقًا طويلاً محفورًا، سرنا فيه، نظرنا إلى خريطة الدور في المسرحية، وقمنا بتنفيذه بالضبط حتى لا نغضب دكتور ذكى، خرجنا آخر النفق وجدنا سيارة تنتظرنا، نعم..هي نفس مواصفات السيارة المكتوبة في المسرحية، قال لنا سائق السيارة اركبوا، أنا بطل معكم في المسرحية هيا بنا إلى البنك لنقوم بسرقته، طارت السيارة بنا حتى توقفت عند باب البنك، اخترقنا كل الأبواب المشفرة والمصفحة حتى وجدنا أنفسنا أمام خزينة من الفولاذ ضخمة، أدخلت الرقم السري بسرعة، تمكن الرقم من فتح الخزينة فسرقنا كل ما تحتويه من نقود

ومجوهرات، ثم فررنا بنفس الطريقة عائدين بنفس السيارة إلى الخندق تحت مسرح السجن، صعدنا على المسرح ومعنا حقيبة المسروقات، وأمسكت الميكروفون وهنأت العصابة أنها نجحت في الدور بامتياز، وفتحت الحقيبة أمام محقق السجن والضيوف؛ مما أبهر المحقق من صدق التمثيل، ولكن وجدت وسط المسروقات أوراقًا كثيرة لم أقرأها هناك، يبدو أنها شهادات ادخار للعملاء في البنك، جلست على خشبة المسرح أقرأ بصوتٍ عالٍ الأسماء التي وردت في هذه الشهادات: السيد فلان والسيد فلان والسيد فلان ثم السيد المحقق رشيد، هبّ السيد المحقق من كرسيه وقال لي: أحضر هذه الورقة هنا نزلت من على خشبة المسرح وأعطيت له الشهادة في يده، قرأ ما فيها ثم صفعني على وجهي وقال أيها اللص أنت توهمنا أنك تمثل دور اللص وأنتم لصوص بالفعل، اقبضوا عليهم جميعًا، لابد أن تأخذوا عقابًا رادعًا على فعلتكم الحمقاء، وتم الحكم علي بعشر سنوات أخرى، أخذت أتوسل إلى المحقق وأقبّل يده وأقول له أنا مظلوم؛ فهذه ليست رأسي، أقسم لك

وأخذت أتحسس رأسي وأصرخ أين عقلي؟ أين عقلى !

وجدت يدًا تضغط على رأسي بقوة حتى تألمت من شدة

الضغطة، وقالت بصوت منخفض هاهو عقلك يا رسلان، وناولتني قرصًا مهدئًا وقالت مازلت تعاني من آثار هلوسة وكوابيس يا رسلان، استرخِ قليلاً، إنها الممرضة المكلفة بالإشراف علي، سمعت الممرضة تتحدث مع محقق السجن عن تدهور حالتي الصحية والنفسية ولابد أن يجدوا حلاً سريعًا لإنقاذي أو يضعوا نزيلاً آخر معي ليكسر حاجز الوحدة في الغرفة، كم طال غياب زوجتي وطفلتي وطفلي الجديدفلا جدوى من الانتظار، ولا شيء يقتل ملل الشوق غيرالرسائل، فكتبت لها رسالة أطلب منها أن تأتي لزيارتي وتحضر معها الصغيرين .. ربما لن تروني بعد ذلك ، إمضاء زوجك رسلان.

أخذ الحارس الرسالة ومسك يدي وقال لى لقد أمر الطبيب أن تتنزه قليلاً فى الهواء الطلق في الحديقة ليساعد ذلك على تحسين حالتك النفسية

أجلسني على مقعد صغير، نظرت حولي، أجد مرضى ينظرون لبعض كالبائسين حتى هنا لم أجد ما يغير نفسيتي، في الحجرة سجن صغير وهنا سجن كبير، ناديت على الحارس من فضلك خذني إلى حجرتي، أريد أن أستريح، أمسك يدي وأعادني إلى الحجرة مرة أخرى وأغلق الباب عليّ، شعرت

بالدوار من كثرة التفكير والآلام تقطّع جسدي لقد مللت من تعاطي المهدئات بلا جدوى، شعرت بجوع ، وجدت وجبة كبيرة على المنضدة لم أرها من قبل!

قمت بفتحها وجدت أن كل ما فيها كنت أشتهيه بالفعل، أكلت جزءًا من الوجبة ثم مددت يدي لأخذ ماتبقى، شعرت بيده تمتد معي

ارتعشت يدى من الخوف، أبعدتها بسرعة، سمعت صوتًا يقول لاتخف أنا صديقك، هنا قلت له الحجرة كانت لي فقط، أجاب أنا هنا لأخفف عليك الوحدة؛ لأني عرفت أنك في معاناة شديدة، شعرت بارتياح كبير لحديث هذا الصديق لابد أن الطبيب اقترح أن لا أجلس بمفردي ثانيًا حتى لا تسوء حالتي، وبدأ ت أتحدث معه طوال الليل عن مأساتي وكيف دخلت هنا، وعائلتي، فكان يستمع لى بإنصات شديد ووعدني أنه سيكون عونًا كبيرًا لي حتى انقضاء فترة العقوبة الطويلة، توطدت علاقتنا كلما مر وقت كبير على جلوسه بالحجرة معي، كنت أنظر إلى السقف، فسألني لماذا تحملق دائمًا هكذا في السقف يا رسلان ؟

قلت أحملق فيما أبعد من السقف

سألني ماهو ؟

قلت له الإله، كل فترة أرفع رأسي لأ تحقق من وجوده، فسألني:

وهل تحققت الآن ؟

قلت نعم، إنه معي وسيخرجني من هذه المحنة الصعبة قريبًا.

فاجأني بضحكة عالية !

وقال ما دليلك أنه معك ؟

فقلت له إنه أرسلك لي لتساعدني وأنا داخل حجرة ضيقة

فضحك ضحكة ثانية وهز رأسه نعم.. نعم يا رسلان هو كذلك

اجلس يا رسلان ولاتنظر إلى السقف كثيرًا؛ فالإله يوجد في كل مكان، أليس كذلك ؟

دققت في جملته ، نعم لماذا أنظر إلى السماء دائمًا لأجده !

فقال لى: عدني أنك لن تنظر إلى السماء مجددًا، فوافقت باقتناع ووعدته

وقضينا معظم الوقت نتبادل الحديث، وكان شديد الحجة في كل آرائه

كانت تأتي له وجبات أجمل من الوجبات التي تأتي إليّ، ولكنه كان كريمًا معي، كان يقتسم معي طعامه اللذيذ والفاكهة التي نسيت طعمها، فصرنا أصدقاء مقربين، أخيرًا أصبح لي صديق أشكو له ما يؤلمني ليخفف عنى المعاناة.

شكوت له عدم قدرتي على احتمال امتناع زوجتي عن زيارتي كل هذه المدة الطويلة، لكنه لم يطمئني، بل جعل الشكوك تساورني أكثر

لابد أنه محق؛ فزوجتي لم تعد تحبني، أنا زوج بلا مستقبل، وحياتي بائسة فقيرة وهى امرأة جميلة، والرجال سترغبها وتقدم لها كل المساعدات لتفوز بها، وتقدم على خيانتي، شعرت بالدوار المعتاد من كثرة التفكير، قمت أنثر الماء على وجهي ثم جلست للصلاة، مر صديقى آب بجانبي مرارًا، قطع عليّ الصلاة ثم أعدتها من جديد، ولكن تشتت تركيزي إلى آب الذي يمر بجانبى يمينًا ويسارًا بدون داع، توقفت عن الصلاة، اقترب مني وسألني: ما الذي تفعله يا رسلان؟ أكيد أنها رياضة!

فقلت له: إنها الصلاة

سألني لماذا تصلي؟

أجبت: أصلي لأتقرب من الإله، صمت ثم قال: ولماذا لم يتقرب الإله لك؟

فكرت طويلا في الرد، ثم قلت: أنا أتقرب أولاً ثم هو، وليس العكس

فضحك ساخرًا: وماذا وجدت من تقربك وأنت هنا غير الألم والظلم ؟

أصبحت الشكوك تدور في رأسي فهذا الصديق جعل تفكيرى يتغير تمامًا وربما يكون هو على صواب!

نظرت إلى وجهه، وجدته يريد أن يخبرنى شيئًا ولكنه متردد، ضغطت عليه ماذا تريد أن تخبرني؟.

قال بهدوء وترقب: حارس السجن أخبرني أن زوجتك رفعت قضية دعوة طلاق ولكن لم يخبرك بسبب حالتك النفسية السيئة.

تسمرت أرجلي في الأرض، لم أصدق ماقاله

أمسكته من رقبته وقلت له: إنك أكيد تكذب علي؛ فزوجتي لا يمكن أن تفعل هذا أمسك يدي بهدوء غريب وقال: ليس من صالحي الكذب عليك فلا هدف لي فى ذلك.

وجدت نفسي متسرعًا فيما فعلته معه، اعتذرت له، وطلبت منه أن يسامحني ويلتمس لي العذر.

همس في أذني وقال: هذا أكبر دليل أن الإله لا ينظر لك عندما تنظر أنت إليه في السماء، ولا يراك وأنت تصلي؛ فكم مرة طلبت منه مخرجًا لما تعانيه ولم يفتح لك هذا المخرج!

جلست أبكي منهارًا على الأرض؛ إنه محق فيما قاله، ولكن في قرارة نفسي أريد أن أنظر إلى السماء أطلب عون الإله، ربما يخذل الإله هذا الصديق، ولكنه لم يعطني فرصة وقال:

أنا معك أطلب العون للمرة الأخيرة، وستشاهد صدق كلامى.

فعلت ولكن لم أجد مخرجًا!

فقال لي: ما رأيك لو وجدت أنا لك مخرجًا لتخرج من السجن وتقتل زوجتكالخائنة وتنتقم من السيد تموز وأمثاله، ثم أشار إلى فتحة كبيرة في السجن لم أرها من قبل وقال: هذا

مخرجي انطلق منه لتنتقم وخذ هذه السكين معك

أدخلت جسدى كاملاً في الفتحة الكبيرة التي صنعها لي وجدت نفسي أمام منزلي القديم الحقير فتحت الباب بهدوء، لم أجد زوجتي ولا الصغيرين، اختبأت في الحجرة حتى تأتي مع هذا الرجل الخائن إلى فراشي

غلبنى النعاس وأنا مختبئ سمعت صوت أقدام أيقظتنى سريعًا نظرت من فتحة صغيرة للباب وجدت زوجتي ومعها كيس كبير من الطعام والفاكهة، لابد أنهما ثمن الخيانة!

فتحت الباب بحذر.

اجهزت عليها من الخلف فطعنتها من الخلف بالسكين حتى امتلأت ملابسها بالدماء مما جعل الطفل الذى تحمله يسقط من بين يديها فصرخ الطفل صراخًا هستيريًافقمت بخنقه هو الآخر فمن يدري أن هذا الطفل هو ابني أم ابن الخائن الذي تخونني معه وتطلب الطلاق لأجله، أكملت جريمتي بهدوء لابد من الرجوع ولكن إلى أين هل أعود إلى السجن مجددًا؟.

فكرت طويلاً، وجدت من الأفضل أن أعود للسجن حتى لا تثار الشكوك حولي

وجدت نفسي أمام الفتحة الكبيرة التي صنعها لى آب ، أدخلت جسدي وجدت نفسي في حجرة السجن مرة أخرى كما كنت، التقطت أنفاسي، وشعرت أني انتقمت من هذا الخائنة أقسى انتقام.

بحثت في الحجرة عن صديقي لأشكره، لم أجده، أين اختفى؟

نظرت إلى باب الحجرة وجدته مفتوحًا اندهشت لماذا يتركون الباب مفتوحًا وكل سجين هنا يريد الهروب !

خرجت من الحجرة لم أجد الحارس أخذت أسير في ممر طويل لم أجد أحدًا من الحراس !

أخيرا وجدت نزيلاً بملابس السجن فسألته هل الحراس اليوم جميعًا في إجازة ؟ قال: لا هذا السجن لايوجد به حراس، أكيد أنت لم تقرأ اللافتة المكتوبة عليه جيدًا، وأشار على اللافتة، اقتربت منها، وجدت مكتوبًا عليها (من يجد أن العدل الحقيقي فى الخارج فليهرب)

شعرت بقمة الغباء فكيف لم أشاهد هذه اللافتة طوال فترة عقوبتي التي قاربت على الانتهاء !